موضوع البحث:

حلول قرآنية لمشكلات إنسانية

(نتناول بصفة خاصة مشكلات الإنسان النفسية)

بحث مستقى من كليات رسائل النور

للإمام الجليل بديع الزمان سعيد النورسى

إعداد

الباحثة / خديجة النبراوى

الناشـر
شـركـة سـوزلر للنـشـر

١٠ ش يوسف عباس - مدينة التوفيق
مدينة نصر القاهرة ت: ٢٦٣٦٦٨٤

الطبعة الأولى : ١٩٩٩
رقم الإيداع : ٤٤٤٥ / ٩٩
الترقيم : 977-5323-20-7

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾

(الإسراء: ٨٢)

صدق الله العظيم

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد . معدن الأسرار الربانية .
وخزائن العلوم الاصطفائية . صاحب القبضة الأصلية . والبهجة السنية
والرتبة العلية . من اندرجت النبيون تحت لوائه . فهم منه وإليه ..

وأسبغ اللهم من رحماتك على روح الإمام النورسي
ما تزيده بها في عليين مقاما وأنوارا وسكينة واطمئنانا ..

ذلك الإمام الذي جمعتنا بروحه الطاهرة وهو في عالم الغيب
فكان أكثر مضاء وقوة في إمدادنا بأنواره ونحن في عالم الشهادة ..

من هو الإمام النورسى؟

سؤال يطرحه الكثيرون بعد قراءة أى مكتوب يصدر عن رسائل النور التى تبهرهم بأفكارها العلوية وأنوارها المعنوية.

وأنا أقول لكل من يتشوق إلى تنسم عبير ذلك الإمام الجليل:

- إنه الإمام العارف بالله، العالم الورع التقى، بديع الزمان، وكل زمان "سعيد النورسى".
- ولد عام ١٨٧٦ ، بشرق الأناضول بتركيا.. وانتقل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٦٠.. بعد حياة حافلة بالجهاد المادى والمعنوى فى أسمى صوره وأبلغ معانيه.
- لا يمكن بسهولة حصر النعم والمواهب التى أنعم الله بها عليه: فهو عالم متمكن من حدود الشريعة إلى أبعد مدى، ومتبحر فى علوم الحقيقة إلى ما شاء الله له الإبحار فى آفاق عالية، ومستوعب من العلوم الدنيوية ما لا يجاريه فيه عالم من علماء عصره.. وله السبق بفضل من الله - فى كل المزايا التى يمكن أن يحظى بها العلماء.
- كذلك لا يمكن بسهولة إطلاق صفة واحدة تدل عليه: فهو: عالم - عارف بالله - مجاهد - تقى - ورع - زاهد - متواضع - أديب - شاعر - مفكر - حكيم - إنسان بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معان.
- أما عن دوره فحدث ولا حرج:
  - فهو المفكر العظيم صاحب حركة إحياء الفكر الدينى فى تركيا، حيث وهب حياته للحفاظ على الهوية الإسلامية فى تلك البلاد، التى تعرضت لأقصى ما تعرضت له دولة إسلامية، من غزوات الفكر الغربى.

- وهو المجاهد الذى حمل السيف والقلم دفاعا عن الحق ضد الباطل، وأبرز في كل الميادين قدرة فائقة وبسالة نادرة.
- ويكفيه شرفا وفخرا أن نقول: إنه صاحب رسائل النور، فهى تعتبر بحق زاد الدعوى الإسلامية لأجيال المستقبل، التى تحتاج إلى البرهان العقلى، والحكمة المستقاة من حقائق القرآن، وتتفق مع روح العصر.

♦ إن الإمام النورسى لا يمكن تعريفه فى سطور، فهو يحتاج إلى مجلدات ضخمة.. ولكن نقول لكل من يريد معرفة من هو ذلك الإمام الجليل بحق: انظروا إلى تلاميذه، ومدى وفائهم وإخلاصهم لشيخهم، ومدى النور الذى يشع من وجوهم الوضاءة بالإيمان، علاوة على ما فى قلوبهم من فيوضات ربانية وإلهامات نورانية.. بذلك تعرفون عظمة الأستاذ وجدارته، فى ترجمة معانى القرآن إلى رجال عظام.. حتى لو مرت السنون والأعوام الطوال على رحيله إلى دار البقاء.

فاللهم انفعنا بعلمه، ولا تحرمنا أجره. واجمعنا يا رب به مع الأحبة :."محمد وصحبه" إنك على كل شئ قدير وبالإجابة جدير.

وصلى الله على معلم البشرية الأكبر الحبيب المصطفى، إمام المتقين، وقدوة الداعين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

خديجة النبراوى

تمهيد عام

أتقدم بهذا البحث "حلول قرآنية لمشكلات إنسانية" بكل الحب الذى يعمر قلبى لله ولرسوله وللإنسانية جمعاء. ومن منطلق اقتناعى بقدرة الإسلام على مواجهة مشكلات الإنسان فى كل زمان ومكان.

وأعترف أن النية كانت معقودة فى بداية الأمر أن أتناول المشكلات الإنسانية على مستوى الأمة ككل: أى من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. حيث هذا مسلكى منذ تخصصى فى البحث العلمى، لاقتناعى دائما أن هموم الأمة أعظم من هموم الفرد، والاهتمام بإصلاحها أولى.. ولكننى وجدت نفسى أعدل عن هذا الاتجاه، لعدة أسباب:

أولها: خضوعى لإرادة الله فى قوله تعالى:

﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ (التكوير: ٢٩).

ثانيها: إن أمانة البحث العلمى تقتضى دائما التجديد فى تناول الموضوعات، ليندفع قدما إلى الأمام ويعلو البنيان. ولذلك فقد فرضت على تلك الأمانة ألا أكرر بعض ما كتبته فى بحث سابق، عن دور كليات رسائل النور فى يقظة الأمة: عقائديا وعلميا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا.

ثالثها: اقتناعى بقول الإمام النورسى -رحمه الله-: "فى هذا الزمان إنقاذ الإيمان أعظم إحسان".

ومما زاد يقينى بهذا القول: أن الفرد حاليا يكاد يتيه فى خضم المادية، ويتخبط فى وسط التيارات العلمانية، ولم يعد يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من حقيقة وجوده.. ولا أكاد أجلس فى مجتمع ما، حتى أسمع تساؤلات عديدة تدور حول: ما هى النفس؟ وكيف يمكن تحقيق السعادة لها؟ وما هى بواعث آلامها؟ وأيهما أقدر على علاجها: القرآن أم الطبيب النفسى؟

وأعترف أننى كنت أشعر دوما فى قرارة نفسى: بأن تلك الأسئلة تعبر عن ضياع الهوية للنفس البشرية.. تماما مثلما يتساءل الإنسان: من أنا؟ ومن أين جئت؟ ولم خلقت؟ وإلى أين أسير؟ وما الهدف وما المصير؟ و....؟ إلى مئات الأسئلة التى تكاد تزلزل النفس وتذهب بشتاتها.

وردنى الله إلى بداية الرسالة المحمدية: حيث كان هدفها الأسمى هو تحرير النفس الإنسانية من تراكمات الجاهلية، وخلق آفاق رحبة لتلك النفس، للاتصال بالسماء، حتى تتذوق كل معانى الحب والخير والجمال، وتتحرر من كل ما يكدر صفوها، أو يكبل انطلاقها فى الكون، بوعى وبصيرة.. ولذلك فقد ظل النبى ﷺ فى مكة ثلاث عشرة سنة، يصقل النفوس التى آمنت بربها، ويجلوها بنور الحق المبين، حتى تقيم المجتمع الإسلامى على أساس متين، يحقق لها الرقى المنشود فى جميع الميادين.. أى أن بناء الإنسان هو الأصل والأساس، لتحقيق بناء المجتمعات على دعائم متينة، ومبادئ واعية بناءة هادفة.

ولما كانت عجلة التاريخ تدور.. وما أشبه اليوم بالبارحة.. والبارحة التى نقصدها هنا هى فترة خضم الجاهلية، وتشتت النفس البشرية، والتى سبقت نزول الوحى مباشرة.. لذلك كان لزاما علىَّ أن أرجع لنقطة البداية، التى بدأ بها الحبيب المصطفى، وسار على نهجها الأئمة التابعين.. وهى نقطة صقل الإنسان، وتحقيق النضج العقلى، والأمان النفسى له.

ومما يفرض علىَّ ذلك: أننا نعيش فى عصر، تشعر فيه النفس الإنسانية أنها قد ضاقت عليها الأرض بما رحبت.. وزهقت الأنفس، وتحيرت العقول، تحت ركام المذاهب الفلسفية، والنظريات العلمية، وتحير الإنسان وسط الطريق، فلم يعد يدرى أيها يأخذ وأيها يدع؟ أيها يعتنق وأيها يرفض؟ أين وجه الحق فيها وأين الباطل؟ أى طريق يسلك ليجد حريته الحقيقية، التى تحقق له الرقى العقلى والطمأنينة والسكينة لنفسه؟

ورغم أن البحث العلمى هو أمنيتى ومبتغاى، لأنه يمثل لى الزاد فى

رحلة البحث عن الحقيقة.. إلا أننى فى كل مرة أبدأ فيها بحثا جديدا، أشعر برهبة كأننى أخوض المجال لأول مرة.. والحق يقال: إن هذه المرة تستحق الرهبة فعلا، لأن الموضوع المطروح للبحث يتعلق أساسا بالقرآن.. ويكفى أن نذكر تلك الكلمة المهيبة الجليلة، لتهبط قلوبنا من خشية الله.. فالقرآن هو كلام الله.. فأنىّ لنا أن نحيط بعظمته وأهدافه ومراميه؟!

وأحمد الله أن دورى فى هذا البحث هو دور التابع لإمام بارع وربّان ماهر، وغواص بصير، هو الإمام النورسى -*رضي الله عنه وأرضاه*- الذى تطوع للاغتراف من كنوز الرحمة الإلهية.. ونحن بدورنا نقتبس قبسا من تلك الكنوز التى اغترفها.. فتلك بحار لا نجيد السباحة فيها، ولكننا نتعلق بورثة الأنبياء ليفيضوا علينا مما أفاض الله عليهم.. جازاهم الله عنا خير الجزاء.

ونحن إذ نتناول المشكلات الإنسانية من الناحية النفسية، فإننا نسير على نهج الحبيب المصطفى ﷺ، الذى سار عليه الإمام النورسى، حيث أولى الاهتمام الأكبر للإنسان، من حيث كونه إنسان تجتمع عليه أهواء نفسه الأمارة بالسوء، مما يعكر عليه صفو حياته، ويقطع عليه طريق الوصول إلى الحق.

وما جعلنى أطمئن إلى اختيارى هذا: أنه قد تنجح بعض السياسات فى تحقيق الرفاهية الاقتصادية والاستقرار السياسى والاجتماعى إلى حد ما.. ولكن ستظل دوما وأبدا نفس الإنسان فى حيرة وضيق وقلق، ما لم تمس شغافها أنوار الإيمان، وعظمة الإسلام.. فهو بحق الدين الوحيد القادر على تحقيق الاستقرار النفسى، بمعالجة مشكلات النفس بأنوار القرآن.

ولذلك فقد فرض هذا البحث نفسه علىّ، انطلاقا من حب الإسلام، ويقينا بعظمته، ورفعة وسمو مبادئه.. واقتناعا بمنهج الإمام النورسى -ﷺ- فى استخراج كنوز القرآن، لتحقيق الاطمئنان للنفس الإنسانية.

فإن كنت قد وفقت فى تحقيق هدفى هذا -فبفضل من الله ونعمة- أن رزقنا ببعثة خير الأنام محمد ﷺ وكل من استقى من نبعه، وسار على هديه، مثل الإمام النورسى.

وإن كنت قد أخطأت، فهذا من قصور عقلى، وضعف همتى، وأهواء نفسى ﴿وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم﴾ (يوسف: ٥٣).

فاللهم تقبل منا صالح أعمالنا.. وتجاوز عن أخطائنا.. فليس لنا غيرك من ولى ولا نصير.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

﴿وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾ (الأعراف: ٤٣).

مقدمة

جولة داخل النفس

ماهية النفس البشرية تعريف أنا:

قبل معرفة مشكلات الإنسان النفسية، وكيف وضع القرآن الحلول الحكيمة لعلاجها، لابد أولا من معرفة "ماهية أنا" فى الإنسان، وهو السؤال الذى يحير البشرية منذ الأزل، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وقد بذل الإمام النورسي جهدا عظيماً فى تعريف "أنا" وذلك فى مواطن عدة من رسائل النور، هادفاً إلى الأخذ بيد الإنسان لمعرفة الله، انطلاقا من قول الحبيب المصطفى ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

ويلجأ الإمام النورسى إلى تعريف "أنا" من وحى أسرار الآية الكريمة: **﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا﴾ (الأحزاب: ٧٢).**

فيقول رحمه الله[١]: من الخزينة العظمى لهذه الآية الجليلة، سنشير إلى جوهرة واحدة من جواهرها وهى: أن الأمانة التى أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، لها معان عدة، ولها وجوه كثيرة. فمعنى من تلك المعانى، ووجه من تلك الوجوه، هو: "أنا".

نعم! إن "أنا" بذرة، نشأت منها شجرة طوبى نورانية عظيمة، وشجرة زقوم رهيبة، تمدان أغصانهما، وتنشران فروعهما، فى أرجاء عالم الإنسان، من لدن آدم عليه السلام إلى وقتنا الحاضر.

---

(١) ص ٦٣٥ من الكلمات (الكلمة الثلاثون).

إن "أنا" مفتاح، يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون، فهو بحد ذاته طلسم عجيب ومعمى غريب.. ولكن بمعرفة ماهية "أنا" ينحل ذلك الطلسم العجيب، وينكشف ذلك المعمى الغريب "أنا" وينفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الوجوب.

فاعلم أن مفتاح العالم بيد الإنسان وفى نفسه. فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب ظاهرا، إلا أنها منغلقة حقيقة.. فالحق ﷻ أودع من جهة الأمانة فى الإنسان مفتاحا، يفتح كل أبواب العالم، وطلسما يفتح به الكنوز المخفية لخلاق الكون.. والمفتاح هو ما فيك من "أنا". إلا أن "أنا" أيضا معمى مغلق، وطلسم منغلق. فإذا فتحت "أنا" بمعرفة ماهيته الموهومة، وسر خلقته، انفتح لك طلسم الكائنات كالآتى:

إن الله ﷻ وضع بيد الإنسان أمانة هى: "أنا" الذى ينطوى على إشارات ونماذج، يستدل بها على حقائق أوصاف ربوبيته الجليلة، وشئونها المقدسة. **أى يكون "أنا" وحدة قياسية تُعرف بها أوصاف الربوبية وشئون الألوهية.**

ومن المعلوم أنه: لا يلزم أن يكون للوحدة القياسية وجود حقيقى، بل يمكن أن تركب وحدة قياسية بالفرض والخيال، كالخطوط الافتراضية فى علم الهندسة. أى لا يلزم لـ "أنا" أن يكون له وجود حقيقى بالعلم والتحقيق.. وهنا يثور ذلك التساؤل الحيوى:

- **سؤال:** لم ارتبطت معرفة صفات الله ﷻ وأسمائه الحسنى بـ "أنا" الإنسان؟
- **الجواب:** إن الشىء المطلق والمحيط، لا يكون له حدود ولا نهاية، فلا يُعطى له شكل، ولا يُحكم عليه بحكم، وذلك لعدم وجود وجه تعين وصورة له، لذا لا تُفهم حقيقة ماهيته.

فمثلا: الضياء الدائم الذى لا يتخلله ظلام، لا يُشعر به ولا يُعرف وجوده، إلا إذا حُدد بظلمة حقيقية أو موهومة.

وهكذا: فإن صفات الله ﷻ: كالعلم والقدرة - وأسمائه الحسنى: كالحكيم والرحيم.. لأنها مطلقة لا حدود لها، ومحيطة بكل شيء، لا شريك لها ولا ند، لا يمكن الإحاطة بها، أو تقييدها بشيء، فلا تعرف ماهيتها، ولا يُشعر بها.. لذا لابد من وضع حد فرضي وخيالي، لتلك الصفات والأسماء المطلقة، ليكون وسيلة لفهمها، حيث لا حدود ولا نهاية حقيقية لها.. وهذا ما تفعله "أنا" في الإنسان. **إذ يتصور في نفسه ربوبية موهومة، ومالكية مفترضة، وقدرة وعلما.** فيحد حدودا معينة، ويضع بها حداً موهوماً، لصفات محيطة وأسماء مطلقة. فيقول مثلا: من هنا إلى هناك لي، ومن بعده يعود إلى تلك الصفات. أي يضع نوعا من تقسيم الأمور، ويستعد بهذا إلى فهم ماهية تلك الصفات غير المحدودة، شيئا فشيئا، وذلك بما لديه من موازين صغيرة، ومقاييس بسيطة.

فمثلا: يفهم بربوبيته الموهومة التي يتصورها في دائرة ملكه، ربوبية خالقه المطلقة ﷻ في دائرة الممكنات.. ويدرك بمالكيته الظاهرية، مالكية خالقه الحقيقية، فيقول: كما أنني مالك لهذا البيت، فالخالق سبحانه كذلك مالك لهذا الكون.. ويعلم بعلمه الجزئي، علم الله المطلق.. ويعرف بمهارته المكتسبة الجزئية، بدائع الصانع الجليل، فيقول مثلا: كما أنني شيدت هذه الدار ونظمتها، كذلك لابد من منشئ لدار الدنيا ومنظم لها.

وهكذا: فقد اندرجت في "أنا" آلاف الأحوال والصفات والمشاعر، المنطوية على آلاف الأسرار المغلقة، التي تستطيع أن تدل وتبين -إلى حد ما- الصفات الإلهية وشئونها الحكيمة كلها.

أي أن "أنا" لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيره، كالمرآة العاكسة، والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف، والمعنى الحرفي. فهو شعرة حساسة من حبل وجود الإنسان الجسيم.. وهو خيط رفيع من نسيج ثوب ماهية البشر.. وهو حرف "ألف" في كتاب شخصية بني آدم، **بحيث أن ذلك الحرف له وجهان:**

- وجه متوجه إلى الخير والوجود، فهو فى هذا الوجه يتلقى الفيض ويقبله فحسب، أى يقبل الإفاضة عليه فقط، إذ هو عاجز عن إيجاد شىء فى هذا الوجه، أى: ليس فاعلا فيه، لأن يده قصيرة لا تملك قدرة الإيجاد.
- والوجه الآخر: متوجه إلى الشر، ويُفضى إلى العدم، فهو فى هذا الوجه فاعل، وصاحب فعل.

وبذلك **فإن ماهية "أنا" حرفية**: أى يدل على معنى فى غيره، فربوبيته خيالية، ووجوده ضعيف وهزيل، إلى حد لا يطيق أن يحمل بذاته أى شىء كان، ولا يطيق أن يُحمل عليه شىء. **بل هو ميزان ليس إلا، يبين صفات الله تعالى، التى هى مطلقة ومحيطة بكل شىء، بمثل ما يبين ميزان الحرارة، وميزان الهواء، والموازين الأخرى، مقادير الأشياء ودرجاتها.**

- فالذى يعرف ماهية "أنا" على هذا الوجه، ويذعن له، ثم يعمل وفق ذلك وبمقتضاه، يدخل ضمن بشارة قوله تعالى: **﴿قد أفلح من زكاها﴾ (الشمس:٩)** ويكون قد أدى الأمانة حقها، فيدرك بمنظار "أنا" حقيقة الكائنات والوظائف التى تؤديها.. وعندما ترد المعلومات من الآفاق الخارجية إلى النفس، تجد فى "أنا" ما يصدقها، فتستقر تلك المعلومات علوما نورانية، وحكمة صائبة فى النفس، ولا تنقلب إلى ظلمات العبثية.

وحينما يؤدى "أنا" وظيفته على هذه الصورة، يترك ربوبيته الموهومة، ومالكيته المفترضة -التى هى وحدة قياس ليس إلا- ويفوض الملك لله وحده قائلا: له الملك، وله الحمد، وله الحكم، وإليه ترجعون. فيلبس لباس عبوديته الحقه، ويرتقى إلى مقام أحسن تقويم.

- ولكن إذا نسى "أنا" حكمة خلقه، ونظر إلى نفسه بالمعنى الاسمى، تاركا وظيفته الفطرية، معتقدا بنفسه أنه المالك، فقد خان الأمانة، ودخل ضمن النذير الإلهى: **﴿وقد خاب من دساها﴾ (الشمس:١٠)**.

وهكذا فإن إشفاق السماوات والأرض والجبال من حمل الأمانة، ورهبتهن من شرك موهوم مفترض، إنما هو من هذا الوجه من "الأنا" التي تولد جميع أنواع الشرك والشرور والضلالات.

أجل! إن "أنا" مع أنه ألف رقيق، خيط دقيق، خط مفترض، إلا أنه إن لم تعرف ماهيته، ينمو في الخفاء، كنمو البذرة تحت التراب، ويكبر شيئا فشيئا، حتى ينتشر في جميع أنحاء وجود الإنسان، فيبتلعه ابتلاع الثعبان الضخم، فيكون ذلك الإنسان بكامله، وبجميع لطائفه ومشاعره، عبارة عن "أنا". ثم تمده "أنانية" النوع، نافخة فيه روح العصبية النوعية والقومية، فيستغلظ بالاستناد على هذه "الأنانية" حتى يصير كالشيطان الرجيم، يتحدى أوامر الله ويعارضها. ثم يبدأ بقياس كل الناس، بل كل الأشياء على نفسه، ووفق هواه، فيقسم ملك الله سبحانه، على تلك الأشياء، وعلى الأسباب، فيتردى في شرك عظيم، يتبين فيه معنى الآية الكريمة: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾ **(لقمان:١٣)**.

إذ كما أن الذي يسرق أربعين دينارا من أموال الدولة، لابد أن يرضي أصدقاءه الحاضرين معه، بأخذ كل منهم درهما منه، كي تسوغ له السرقة، كذلك الذي يقول: إنني مالك لنفسي، لابد من أن يقول ويعتقد: إن كل شيء مالك لنفسه.

وهكذا فـ "أنا" في وضعه هذا المتلبس بالخيانة للأمانة، إنما هو في جهل مطبق، بل هو أجهل الجهلاء، يتخبط في درك جهالة مركبة، حتى لو علم آلاف العلوم والفنون، ذلك لأن ما تتلقفه حواسه وأفكاره، من أنوار المعرفة المبثوثة في رحاب الكون، لا يجد في نفسه مادة تصدقه وتنوره وتديمه.. لذا تنطفئ كل تلك المعارف، وتغدو ظلاماً دامساً، إذ ينصبغ كل ما يرد إليه، بصبغة نفسه المظلمة القاتمة، حتى لو وردت حكمة محضة باهرة، فإنها تلبس في نفسه لبوس العبس المطلق، لأن لون "أنا" في هذه الحالة هو الشرك، وتعطيل الخالق من صفاته الجليلة، وإنكار وجوده تعالى. بل لو امتلأ الكون كله بآيات ساطعات ومصابيح هدى، فإن النقطة المظلمة في "أنا" تكسف

جميع تلك الأنوار القادمة، وتحجبها عن الظهور.

تعريف إجمالي لماهية النفس البشرية:

وفي موضع آخر من رسائل النور، يبين الإمام النورسي ماهية النفس البشرية، بصورة أكثر تحديداً، وفي نقاط محددة واضحة فيقول ﷺ[1]: "يا نفسي الغافلة! إن كنت تريدين أن تفهمي شيئا من: غاية حياتك، ماهية حياتك، صورة حياتك، سر حقيقة حياتك، كمال سعادة حياتك. فإليك ما تريدين:

إن مجمل "غايات حياتك" تسعة أمور:

أولها: القيام بالشكر الكلي، ووزن النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية، بموازين الحواس المغروزة في جسمك.

ثانيها: فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرتك، ومعرفة الله جل وعلا بتلك الأسماء الحسنى.

ثالثها: إعلان ما ركبت فيك الأسماء الحسنى، من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها، وإظهار تلك اللطائف البديعة، أمام أنظار المخلوقات، بعلم وشعور، وبجوانب حياتك كافة، في معرض الدنيا هذه.

رابعها: إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال.

خامسها: التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية، التي وهبتها لك تجليات الأسماء، وإبرازها أمام نظر الشاهد الأزلي جل وعلا.. مثلك في هذا كمثل الجندي، الذي يتقلد الشارات المتنوعة، التي منحها السلطان في مناسبات رسمية، ويعرضها أمام نظره، ليُظهر آثار تكرمه عليه وعنايته به.

سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علم وبصيرة، إذ هي

(١) ص ١٣٧ : ١٤٠ من الكلمات (الكلمة الحادية عشرة).

تحياتها ودلالاتها بحياتها على بارئها سبحانه.. ورؤية تسبيحاتها لخالقها، رؤية تفكر وعبرة، إذ هي رموز حياتها.. وعرض عبادتها إلى واهب الحياة سبحانه، والشهادة عليها، إذ هي غاية حياتها ونتيجتها.

سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، ووزنها بما وهب لحياتك، من علم جزئي، وقدرة جزئية، وإرادة جزئية، أي بجعلها نماذج مصغرة، ووحدة قياسية، لمعرفة تلك الصفات المطلقة الجليلة.

فمثلاً: كما أنك قد شيدت هذه الدار بنظام كامل، بقدرتك الجزئية وإرادتك الجزئية، وعلمك الجزئي، كذلك عليك أن تعلم -بنسبة عظمة بناء قصر العالم، ونظامه المتقن- أن بناءه قدير، عليم، حكيم، مدبر.

ثامنها: فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم، وإدراك كلماته المعنوية -كل حسب لسانه الخاص- فيما يخص وحدانية خالقه، وربوبية مبدعه.

تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية، والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك، إذ كما تُدرك أنواع الأطعمة ودرجاتها ولذاتها، بدرجات الجوع، وبمقدار الاحتياج إليها، كذلك عليك فهم درجات القدرة الإلهية، وثروتها المطلقتين، بعجزك وفقرك غير المتناهيين.

فهذه الأمور التسعة وأمثالها هي مجمل "غايات حياتك".

أما "**ماهية حياتك الذاتية**" فمجملها هو:

أنها فهرس الغرائب التي تخص الأسماء الإلهية الحسنى..

ومقياس مصغر لمعرفة الشؤون الإلهية وصفاتها الجليلة..

وميزان للعوالم التي في الكون..

ولائحة لمندرجات هذا العالم الكبير..

وخريطة لهذا الكون الواسع..

ونذلكة لكتاب الكون الكبير ..

ومجموعة مفاتيح تفتح كنوز القدرة الإلهية الخفية..

وأحسن تقويم للكمالات المبثوثة فى الموجودات، والمنشورة على الأوقات والأزمان..

فهذه وأمثالها هى "ماهية حياتك".

وإليك الآن **"صورة حياتك"** وطرز وظيفتها، وهى: إن حياتك كلمة حكيمة، مكتوبة بقلم القدرة الإلهية.. وهى مقالة بليغة، تدل على الأسماء الحسنى، المشهودة والمسموعة.. فهذه وأمثالها هى صورة حياتك.

أما **"حقيقة حياتك"** وسرها فهى:

أنها مرآة لتجلى الأحدية، وجلوة الصمدية، أى أن حياتك كالمرآة، تنعكس عليها تجلى الذات الأحد الصمد، تجلياً جامعاً، وكأن حياتك نقطة مركزية، لجمع أنواع تلك التجليات الإلهية، المتجلية على العالم أجمع.

أما **"كمال سعادة حياتك"** فهو:

الشعور بما يتجلى من أنوار التجليات الإلهية، فى مرآة حياتك وحبها، وإظهار الشوق إليها، وأنت مالكٌ للشعور، ثم الفناء فى محبتها، وترسيخ تلك الأنوار المنعكسة، وتمكينها فى بؤبؤ عين قلبك.

فيا نفسى!

أن حياتك التى تتوجه إلى مثل هذه الغايات المثلى، وهى الجامعة لمثل هذه الخزائن القيمة.. هل يليق عقلاً وإنصافاً أن تُصرف فى حظوظ تافهة، تلبية لرغبات النفس الأمارة، واستمتاعاً بلذائذ دنيوية فانية، فتهدر وتضيع بعد ذلك.

فإن كنت راغبة فى عدم ضياعها سدىً، ففكرى وتدبرى فى القسم، وجواب القَسَم، فى سورة "الشمس": ﴿والشمس وضُحاها ۝ والقمر إذا تلاها ۝ والنهار

إذا جلاها ۞ والليل إذا يغشاها ۞ والسماء وما بناها ۞ والأرض وما طحاها ۞ ونفس وما سواها ۞ فألهمها فجورها وتقواها ۞ قد أفلح من زكاها ۞ وقد خاب من دساها﴾.

من أمراض ضلالة النفس:

فرعونية النفس:

يرى الإمام النورسى أن الغفلة عن المالك الحقيقى ﷻ سبب لفرعونية النفس[(١)]، فتتوهم نفسها مالكة لها، فيتشكل فى وهمها دائرة لحاكميتها، ثم تقيس الناس بل الأسباب على نفسها، فتقسم مال الله عليها، فتعارض الأحكام الإلهية، وتبارز مع مقدرات خالقها. مع أن الحكمة فى إعطاء أنانية لها، أن تصير واحداً قياسيا، لفهم صفات الألوهية، فأساءت بسوء الاختيار، فصرفتها فى غير ما وضعت له.

فبماذا يرد الإمام النورسى على تجاوز النفس لحدودها؟

يقول رحمه الله[(٢)]: إن من أعاجيب فطرة الإنسان فى وقت الغفلة، التباس أحكام اللطائف والحواس. كالمجنون الذى يصل نظره إلى شىء، فيمد يده إليه، ظناً منه -لمجاورة العين لليد- أن ما يحصل بتلك، يحصل بهذه أيضا. فالإنسان الغافل الذى لا يصل يد اقتداره، إلى تنظيم أدنى جزء من أجزاء نفسه، يتطاول بغروره وسعة خياله، إلى الحكم والتحكم فى أفعال الله فى الآفاق.

وكذا من أعجب فطرة البشر أن أفراده، مع تقارب درجاتهم فى الصورة الجسمية، يتفاوتون معنى بدرجات كبيرة، كما بين الذرة إلى الشمس، إلى شمس الشموس - خلافاً لسائر الحيوانات والطيور. فكأن الإنسان إذا لم تحدد

---

(١) ص ١٢٨ من المثنوى العربى النورى (قطرة).

(٢) ص ٢٣١ من المثنوى العربى النورى (حبة).

قواه، وتوجه الوجهة الصحيحة، أمكن له أن يتنزل ويتسفل "بالأنانيـة" إلـى أن يكون هو والذرة سواء.. وكنا جاز له أن يتجاوز بالعبوديـة وبترك "أنـا" إلـى آفاق عالية، ويصير بفضل الله كشمس الشموس، مثل محمد ﷺ.

فيا أيتها الحجيرة الكبرى المعبرة "بأنا" المركبة من تلك الحجيرات! فقـل: يا إلهى، يا ربى، يا خالقى، يا مصورى، يا مالكى، يا سيدى، يا مـولاى، لـك الملك ولك الحمد، أنا مسافر فى وديعتك، وأمـانتك ومملوكـك، الـذى هـو هذا الجسد بمشتملاته.

واعلـم يـا "أنـا" أن لـك أمـور تسـعة فـى دنيـاك، تعاميت عـن ماهيتهـا وعواقبها[1]:

- **أما جسدك**: فكالثمرة المتزهرة المتزينة صيفاً، المنكمشة المتفسخة شتاء.
- **وأما حيوانيتـك** (أى حياتك الماديـة): فـانظر إلـى جنـس الحيـوان، كيـف يسرع فيهم الموت والزوال.
- **وأمـا إنسـانيتك**: فمـترددة بيـن الانطفـاء والاصطفـاء، والـزوال والبقـاء، فاستحفظ على ما بقى، بما من شأنه أن يبقى بذكر الدائم الباقى.
- **وأما حياتك** (أى مدة بقائك وعمرك): فكقامتك قصيرة، معينة الحـدود، لا تقدم ولا تؤخر. فلا تتألم ولا تحـزن ولا تخـف عليهـا، ولا تحملهـا مـا لا طاقة لها به، مما تطاول إليه طول الأمل.
- **وأمـا وجـودك**: فليـس ملكـا لـك، فلـه مـالك، لـه الملـك وأشـفق بـه منـك، فمداخلتك بغير ما أمـرك بـه، فكمـا أنهـا مـن الفضـول، وشـغل فضولـى، فكثيرا ما تضر. ألا تـرى الحـرص وأرق النـوم، كيـف يفعـلان ويجلبـان الخيبة والسهر!.

---

(١) ص ٢٢١ من المثنوى (حبة).

- **وأما مصائبك:** فليس لها مرارة حقيقية، لأنها تمر سريعا، بل تحلو لأنها تحول، فتحول وجهك من الفناء فى الفانى، إلى البقاء بالباقى. وأما أنت هنا الآن، فمسافر ثم مسافر ثم مسافر، والمسافر لا يعلق قلبه بما لا يتعلق به، ويفارقه بسرعة. فكما ستفارق هذه الدنيا الفانية بالضرورة فاخرج وأنت عزيز، قبل أن تطرد وأنت ذليل.
- **وأما وجودك:** فافده لموجده الذى يشتريه بثمن غال، فسارع إلى البيع بالفداء – أولا: لأنه يزول مجانا – وثانيا: لأنه ماله وإليه يؤول – وثالثا: لأنه إن اعتمدت عليه، سقطت فى العدم، لأنه باب إليه، وإذا فتحته بالترك، وصلت إلى الوجود الثابت – ورابعا: لأنه إذا تمسكت به، كان فى يدك نقطة وجود فقط، ويحيط بك ما لا يتناهى من مواطن الإعدام الهائلة.. وإذ انفضت يدك منه، استبدلت لمعة بشمس، فينقلب محيطك إلى ما لا يتناهى من أنوار الوجود.
- **وأما لذائذ الدنيا:** فقسمتك تأتيك، فلا تطش فى طلبها.. ولزوالها بسرعة، لا يليق بالعاقل تعليق القلب بها. وكيفما كانت عاقبة دنياك، فترك اللذائذ أولى، إذ إما إلى السعادة، وهى تستلزم تركها.. وإما إلى الشقاوة، ومن ينتظر الصلب، كيف يلتذ ويستعذب ما يزيد عذابه، من تزيينات آلات الصلب؟ إذ بزوال اللذة يحس ذلك العدم الهائل بألمه الأليم، وهذا الألم أثقل بمراتب من لذة الوصال، إن كنت تشعر.

ويختتم الإمام النورسى خطابه لضلالة النفس وغفلتها قائلاً[١]:

أيها السعيد الشقى! ما هذا الغرور والغفلة والاستغناء؟ ألا ترى أن ليس لك من الاختيار إلا شعرة، وليس لك من الاقتدار إلا ذرة، وليس لك من الحياة إلا شعلة تنطفئ، وليس لك من العمر إلا قليل، مثل دقيقة تنقضى، وليس لك من الشعور إلا لمعة تزول، وليس لك من الزمان إلا أن يسيل،

(١) ص ١٩١ من المثنوى (حباب).

وليس لك من المكان إلا مقدار القبر! ولك من العجز ما لا يُحد، ومن الاحتياج ما لا يتناهى، ومن الفقر ما لا يُحصى، ومن الآمال ما لا غاية لها، وهكذا.. فمن كان بهذه الحالة من العجز، وفي هذه الدرجة من الحاجة، هل يتوكل على ما في يده، ويعتمد على نفسه؟! أو يتوكل على الله الرحمن الرحيم، الذي من خزائن رحمته وصناديق نعمته: هذه الشمس، وهؤلاء الأشجار المملوءة من الأنوار والأثمار، ومن موازيب حوض فيضه: الماء والضياء. فيا نور النور بحق اسمك النور، أخرجنا من الظلمات إلى النور ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (البقرة: ٢٥٧).

قلب موازين الأمور

- إن في النفس عقدة مغلقة مدهشة: تصيير الضد مولد الضد، وترى ما عليها كأنه لها(١).

فمثلاً: إن الشمس تصل يدها إليك، تمسح أو تضرب وجهك، ولا تصل يدك إليها، ولا يؤثر مزاجك فيها. فهي قريبة إليك، بعيدة منك. فكما أن جعل وجه البعدية، دليلاً على عدم تأثيرها فيك، ووجه القربية دليلاً على تأثرها منك، جهل.. كذلك نظر النفس -بعين الهوى والأنانية- إلى خالقها القريب إليها، البعيد منها سبب ضلالتها.

- واعلم أن النفس تديم الغفلة، بربط الدنيا بالآخرة، كأنها منتهاها، كلا بل معكوستها. فبتصور الآخرة - ولو مع الشك، تتخلص من دهشة فناء الدنيا وألم الزوال، وبسبب الغفلة أو الشك، تريد الخلاص من كلفة العمل للآخرة، وتنظر إلى الأسلاف الميتين، كأنهم أحياء غائبون، فلا تعتبر

---

(١) ص ٦٣٥ من المثنوي (ذيل القطرة).

بالموت[1].

• وكثيراً ما يثبت عروق مطالبها الدنيوية، فـي أرض الآخرة للتأييد بدسيسة:

إن تلك المطالب لها وجهان: وجه إلى الدنيا لاثبات له، بل هباء منثوراً. ووجه إلى الآخرة تتصل أساساته بأرضها فتدوم.. كالعلم مثلاً له وجه مظلم ووجه مضيء. فالنفس الشيطانة تريك المضيء وتبلعك المظلم، إذ النفس نعامة تغمر رأسها فـي الغفلة، والشيطان سوفسطائي (ينكر كل شيء).. والهوى بيطاشي (أي يغير معاني الأشياء)[2].

• إن القلب ما خلق للاشتغال بأمور الدنيا قصداً، لأنه إذا تعلق بشيء تعلق بشدة، واهتم به اهتماماً عظيماً، ويتطلب فيه أبدية ودواماً، ويفنى فيه فناء تاماً.. لذلك فمن فى قلبه حياة، إذا توجه إلى الكائنات، يرى من عظائم الأمور، ما لا يحيط بـه، ويعجز عن إدراكه، ويتحير فيه. ويرى من عجائب المخلوقات وغرائبها، ما لا يطيق مقاييس عقله وزنها، ويضيق ذهنه عن محاكمتها.

• اعلم أنك بسيئاتك، لا تضر الله شيئا، إنما تضر نفسك. مثلاً ليس فـي الواقع شريك لله، حتى تقويه باعتقادك، فتؤثر فى كمال ملكه تعالى، بل هو فى ذهنك وفى عالمك فقط، فتخرب بيتك على رأسك. فمن توكل على الله فهو حسبه.. فقل "حسبي الله ونعم الوكيل". وكفاك فخرا بلا نهاية -لا كفخرك بكمال كبرائك- أن يكون لك وكيل قدير على كل شيء، وذلك للأسباب الآتية:

أولا: لأنه الكامل المطلق، والكمال محبوب لذاته، وتُفدى له الأرواح.

---

(١) ص ٣٠١ من المثنوى (ذرة).

(٢) ص ٢٣٣ من المثنوى (حبة).

ثانيا: لأنه محبوب لذاته، وهو المحبوب الحقيقي، والمحبة تقتضي الفداء.

ثالثا: لأنه الموجود الواجب. وبقربه أنوار الوجود. وببعده ظلمات العدمات، وألم أليم في أفول آمال الروح الإنساني.

رابعا: لأنه الملجأ والمنجأ للروح، الذي ضاقت عليه الأكوان، وآلمته مزخرفات الدنيا، وعادته الكائنات، وانقض ظهره تحت الشفقة اليتمية، والمرحمة المأتمية.

خامسا: لأنه الباقي الذي به البقاء، وبدونه الزوال، وكل العذاب في الزوال. وبدونه يتراكم على الروح آلام بعدد الموجودات، وبه يتظاهر على المتوكل أنوار بعددها.

سادسا: لأنه المالك يحمل عنك ملكه الذي عندك، إذ لا تطيق حمله، فبتوهم التملك تقع في عذاب أليم أليم. فلبقائه ودوام إنعامه، لا تغتم بفناء ما في يدك، كما لا تحزن الحبابات المتشمسة بالتحول والانحلال. فلإظهار تجددات تجليات الشمس، يفدي الحباب صورته بكمال النشاط، بل يموت وهو يضحك. وكما لا تغتم الثمرات بفراق الشجرة، ولا النواة بانحلال الثمرة، ولا أنت بزوالها، إذ تقولون: فلتحيا الشجرة، إذ في حياتها، موتنا حياة.. يا هذا أنت ثمرة إنعاماته، بل مجسم إنعاماته.

سابعا: لأنه الغني المغني، وبيده مقاليد كل شيء، إذا صرت عبدا خالصا له، ثم نظرت إلى الكائنات تراها ملك مالكك، وحشمته وحواشيه، فتتنزه بها كأنها ملك لك، بل أعلى، بلا كلفة ولا ألم زوال.. إذ الخادم الخالص للملك، والفاني في محبته، يفتخر بكل ما للملك.

ثامنا: لأنه رب الأنبياء والمرسلين، والأولياء والمتقين، وكلهم

مسعودون في رحمته. فعلمك بسعادتهم يعطيك في شقاوتك سعادة ولذة، إن كنت ذا قلب.

فيا نفسي المسكينة: لم تتوهمين نفسك خارجة عن دائرة الأوامر الإلهية، حتى يلزم عليك مراعاة كل حي واحترامه، أو ظلم الكل بعدم الأهمية[1]. فهذا حمل ثقيل لا يطاق حمله، فحينئذ لابد أن تتركي الشرك، الذي هو أجنبي عن الفطرة، وتدخلي في دائرة ملك الله، حتى تبعدي عن دائرة الشياطين، وتنجي من صفات النفس الأمارة، التي تصبح كالنعامة التي تظهر الوجه المضيء من أمور العالم، بأن له فوائد ستظهر في الآخرة، وإن لم تظهر في الدنيا، وذلك لتبلع الإنسان للوجه المظلم منه. ويصدق عليه قول الحق جل شأنه: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ (إبراهيم: ٣٤).

ميل النفس للبقاء والدوام:

إن أشد ما تطلبه النفس الناطقة: البقاء والدوام. حتى لو لم تنخدع بتوهم الدوام، ما التذت بشيء.

فيا من ابتلي بحب هذه الحياة، حتى حسبت أن العلة الغائية في الحياة وبقائها، وأن كل ما أودعته القدرة الأزلية، في جوهر الإنسانية وذوي الحياة، من الجهازات العجيبة، والتجهيزات الخارقة.. إنما أعطاها الفاطر الحكيم لحفظ هذه الحياة، السريعة الزوال، ولأجل البقاء.. كلا ثم كلا. إذ لو كان بقاء الحياة هو المقصود من كتاب الحياة، لصار أظهر وأبهر وأنور دلائل الحكمة والعناية والانتظام، بإجماع شهادة نظام الكائنات، أعجب وأغرب، وأنسب مثال للعبثية والإسراف، وعدم الانتظام وعدم الحكمة. بل يرجع إلى الحر من ثمرات الحياة وغاياتها، بمقدار درجة مالكية الحي للحياة، وتصرفه الحقيقي فيها. ثم سائر الثمرات والغايات، راجعة إلى المحيي ﷻ بالمظهرية لتجليات

(١) ص ٣٠٠ : ٣٠٤ من المثنوي (ذرة).

أسمائه، وبإظهار ألوان وأنواع جلوات رحمته، في جنته في الحياة الأخروية، التي هي ثمرات بذور هذه الحياة الدنيوية[١].

فيا أيتها النفسي طالبة الدوام: اشتملي على ذكر الدائم لتدومي، وكوني زجاجة لنوره لئلا تنطفي، وصدفًا لدره لتصطفي، وبدنا لنسيم ذكره لتحيي، وتمسكي بالخيط النوراني، الذي هو شعاع من اسم من الأسماء الإلهية، لئلا تسقطي في فضاء العدم. فالثمرة الغافلة، إذا لم تتوجه إلى ما تقوم به، وانجذبت إلى متاهات الشرك وإغراءاته الزائفة، انقطعت وسقطت على رأسها.

فيا نفسي استندي على ما يقومك، ولا تشركي بالله ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ **(لقمان: ١٣)**.

فإن ما أنعم الله به عليك من وجودك وتوابعه، ما هو إلا إباحة وليس بتمليك. فلك أن تتصرفي فيما أعطاك، كما يرضى من أعطى، لا كما ترضى أنت. كمن أضاف أحدا، ليس للضيف أن يسرف، أو يصرف، فيما لا إذن للمضيف فيه[٢].

نفس أمارة ثانية:

قبل أن نختتم جولتنا داخل النفس البشرية، لتحديد بعض معالمها، لنفهم بعمق عظمة الحلول القرآنية في مواجهة مشكلات تلك النفس الإنسانية.. نعرض في نهاية جولتنا، ذلك الاكتشاف اللماح للإمام النورسي، الذي يدل على شفافيته، وقدمه الراسخة في الإحاطة بملامح النفس، في جميع جوانبها.

---

(١) ص ١٩٣ من المثنوى (حباب).

(٢) ص ٢٠٨ من المثنوى (ذيل الحباب).

يقول الإمام ﷺ وأرضاه[١]:

رأيت –في وقت ما – لدى عدد من الأولياء العظام– ممن نجوا من أوضار نفوسهم الأمارة بالسوء، مجاهدات نفسية، وشكايات منها.. فكنت أحار في الأمر كثيرا. ولكن بعد مدة طويلة، رأيت أن هناك نفسا أمارة معنوية –غير دسائس النفس الأمارة الحقيقية– هي أشد عصيانا من الأولى، وأكثر نفورا من الطاعة، وأكثر إدامة للأخلاق الذميمة، هي النفس الثانية. **وهي مزيج من الهوس، والمشاعر والطبائع، وهي موغلة في الأعصاب والعروق، وهي الحصن الأخير، الذي تحتمي به النفس الأمارة.** وهي التي تتولى القيام بوظيفة النفس الأمارة، السيئة السابقة –التي تركت منها– فتجعل المجاهدة تستمر إلى نهاية العمر.

وأدركت حينها أن أولئك الأفذاذ الميامين، ما كانوا يشكون من النفس الأمارة الحقيقية، بل من نفس أمارة مجازية. ثم شاهدت أن الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي أيضا، يخبر عن هذه النفس المجازية.

ولما كانت حواس هذه النفس الأمارة الثانية عديمة الشعور، عمياء لا تبصر فلا تفهم أقوال العقل، ولا تدرك نصائح القلب، ولا تعير لها سمعا، كي تنصلح وتدرك تقصيراتها.. لذا لا ترتدع عن السيئات إلا بلطمات التأديب وصفعاتها، وبالآلام. أو بالتضحية التامة، بحيث يضحي المرء بمشاعره وحواسه كلها، للهدف الذي يصبو إليه، فيترك أنانيته كليا، بل كل ما يملكه لذلك الهدف.. وفي هذا العصر العجيب، تتفق النفسان الأمارتان –الحقيقية والمجازية– معا بتلقينات رهيبة، حتى تدفعا الإنسان، ليدخل في السيئات والآثام، طوعا وبرغبة منه، تلك السيئات التي ترتعد من شناعتها الكائنات.

---

(١) ص ٢١٠ من الملاحق (ملحق قسطموني).

فكيف النجاة من هاتين النفسين الأمارتين بالسوء؟

يرد على هذا السؤال الإمام النورسي بقوله[١]: كما أن الحبة من بذور الحبوب، ونوى الثمرات، إذا ثقبت فى قلبها، لا تتكبر بالتنبت. كذلك حبة "أنا" إذا ثقبت بشعاع ذكر: الله.. الله.. لا تتعاظم تلك الأنانية، متفرعنة بالانتعاش ومتفرعنة بالغفلة، ومستحصنة ومستندة بآثار النوع، ومبارزة بالعصيان لجبار السماوات والأرض. والأولياء موفقون لفتح حبة القلب، وكشف طريق قصير، بثقب جبل "أنا" وكسر رأس "النفس" بمثقاب الذكر الخفى. كذلك بالذكر الجهرى، تخرب طاغوت الطبيعة أو تمزق.

فالذكر من شأنه أن يكون من الشعائر[٢]، والشعائر أرفع من أن تنالها أيدى الرياء. وفى الذاكر لطائف مختلفة فى الاستفاضة، بعضها يتوقف على شعور العقل والقلب، والبعض الآخر لا شعورى تحصل الاستفادة منه، من حيث لا يشعر الإنسان. فالذكر مع الغفلة أيضا، لا يخلو من الإفاضة.

وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾ (البقرة: ١٥٢).**

وبعد استعراض تلك الجولة السريعة، داخل النفس البشرية، ننتقل إلى الشق الأول من بغيتنا بهذا البحث، وهو التعرف على بعض الحلول القرآنية، فى مواجهة مشكلات الإنسان النفسية، معترفين أن كل دورنا هو: التقاط بعض اللآلئ من كنوز القرآن الكريم، التى اغترف منها الإمام النورسى، ببصيرته النفاذة، وسبقه الذى لا يبارى فى عالم الحقيقة.. داعين الله من أعماق قلوبنا أن يكون بحثنا هذا فاتحة خير للبشرية، ولبنة فى بناء البحث العلمى لتحقيق الأمن النفسى للإنسانية.

---

(١) ص ١٩٢ من المثنوى (حباب).

(٢) ص ١٧٩ من المثنوى (حباب).

كيف عالج القرآن مشكلات الإنسان النفسية؟

نظراً لأن النفس البشرية طلسم عجيب، ولغز كبير، كما قال الإمام النورسى، فإنها تحوى من المشاعر والانفعالات، ما لا يقدر على مواجهتها إلا القرآن، الذى يحوى من العلاجات النورانية ما تعجز عنه كل القدرات الطبية، المختصة بعلم النفس.

ونحن أمام هذا الخضم الهائل، من الانفعالات النفسية، وأمام تلك الإشعاعات المبهرة، من الآيات القرآنية، التى فيها شفاء لما فى الصدور، واطمئنان القلوب.. لا يمكننا أن نوفى الموضوع حقه، من جميع جوانبه، إنما هى أمثلة ونماذج، تصلح كمؤشر، لمن يريد مزيدا من الغوص فى أعماق الحقيقة، لتحقيق مراحل أعمق وأرسخ من اليقين، فى معراجه الروحى. وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت: ٤٣).**

ومن منطلق قدراتنا المحدودة، وعجزنا الذى لا يوصف، نقدم بعض الأمثلة لمشكلات الإنسان النفسية، فى كل زمان ومكان، وكيف قدم لها القرآن العلاج، وخاصة إذا كان هذا الإنسان ممن كان له قلب حى بنور الإيمان، أو ألقى السمع وهو شهيد:

المشكلة النفسية الأولى

الرعب من مواجهة الموت وفراق الدنيا والأحبة

إن الإنسان بما أودع الله فيه من ماهية جامعة، يرتبط مع أغلب الموجودات بأواصر ووشائج شتى.. ففى تلك الماهية الجامعة، من الاستعداد

غير المحدود للمحبة، ما يجعله يكن حبا عميقا، تجاه الموجودات عامة، فيحب الدنيا العظيمة، كما يحب بيته، ويحب الجنة الخالدة، كما يحب بيته[١].. بينما تلك الموجودات التى وجه الإنسان حبه نحوها لا تدوم، بل لا تلبث أن تزول، لذا يذوق الإنسان دائما عذاب ألم الفراق للمحبوبات الفانية.

كما أنه فى فطرة الإنسان عشق شديد نحو البقاء، حتى أنه يتوهم نوعا من البقاء فى كل ما يحبه، بل لا يحب شيئا إلا بعد توهمه البقاء فيه، ولكن حالما يتفكر فى زواله أو يشاهد فناءه، يطلق عليه الزفرات والحسرات والآهات من الأعماق.

وهكذا فإن الرعب من مواجهة الموت، وفراق الدنيا والأحبة، ينشأ من خصائص نفسية الإنسان وهى: الاستعداد غير المحدود للمحبة، وعشق البقاء.

فكيف عالج القرآن ذلك المرض النفسى للإنسان؟

استلزمت حكمة الحكيم الخبير، أن يكون ذلك العلاج شاملاً عدة اتجاهات:

الاتجاه الأول: تجريد القلب مما سوى الله تعالى، وتوجيه استعداد المحبة فى الإنسان، إلى من له جمال خالد مطلق، وقطع العلاقات مع الموجودات الفانية الزائلة، حتى لا يذوق الإنسان وبال أمره، بآلام الفراق، وما يتبعه من جراحات وآلام.

فقال المولى ﷻ بصورة قاطعة، تدعو إلى قطع الوشائج التى تربط القلب بالموجودات، وتجعله يتعلق بها: ﴿**كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون**﴾ (**القصص**:٨٨)، وهذا يجعل الإنسان المؤمن الذى يعى هذه الحقيقة جيداً أن يقول: لا باقى بقاء حقيقيا إلا أنت يا إلهى. فما سواك فان زائل، والزائل

(١) ص ٢١ : ٢٥ من اللمعات.

غير جدير بالمحبة الباقية، ولا العشق الدائم، ولا بأن يشد معه أواصر قلب، خلق أصلاً للأبد والخلود. وحيث أن الموجودات فانية، وستتركنى ذاهبة إلى شأنها، فسأتركها أنا قبل أن تتركنى، بترديدى: "يا باقى أنت الباقى"، أى: أؤمن وأعتقد يقينا أنه لا باقى إلا أنت يا إلهى، وبقاء الموجودات موكول بإبقائك اياها، فلا يوجه لها المحبة إذن، إلا من خلال نور محبتك، وضمن مرضاتك، وإلا فإنها غير جديرة، بربط القلب معها.

وهكذا فمن يتجرع آلام الفراق، يكون نتيجة تقصيره هو، حيث وجه استعداد المحبة، الذى خلقه الله فيه، إلى موجودات فانية، تعتبر ظلال باهتة للحسن والإحسان والكمال الإلهى، وكان الأولى أن يوجه ذلك الحب، إلى الله سبحانه الباقى دون سواه.

الاتجاه الثانى: استجاب الباقى ذو الجلال، للرغبة الملحة للبقاء، المغروزة فى فطرة الإنسان، والدعاء الشامل الذى يسأله بشدة للخلود.. فخلق سبحانه عالماً باقياً خالداً.. لهذا الإنسان الفانى الزائل، وأخبره بذلك فى كتابه الكريم. فقال جل شأنه: **﴿لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا﴾ (المائدة: ١١٩).. ﴿ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود﴾ (ق: ٣٤).**

وهكذا فإن من يريد تحويل عمره القصير الفانى، إلى عمر باق طويل مديد، مثمر بالمغانم والمنافع، فعليه أن يصرف عمره فى سبيل الباقى، لأن أيما شىء يتوجه إلى الباقى، ينال تجليا من تجلياته الباقية.

وبناء على ذلك فإن عمر الإنسان الفانى، يتضمن عمراً باقياً، من حيث حياته القلبية والروحية، اللتين تحييان بالمعرفة الإلهية، والمحبة الربانية، والعبودية السبحانية، والمرضيات الرحمانية، بل ينتج هذا العمر الباقى الخالد، فى دار الخلود والبقاء، فيكون هذا العمر الفانى، بمثابة عمر أبدى.

فعلى الإنسان الذى يطلب بإلحاح عمراً طويلاً، وهو مشتاق للبقاء، أن يعمل لله، ويلتقى لوجه الله، ويسعى لأجل الله.. فكل ثانية من هذا الوصال،

تعتبر كنافذة مطلة على حياة دائمة باقية.

الاتجاه الثالث: تحرير الإنسان من الخوف من الموت، وبيان أنه ليس انحلال وعدم وتفسخ، وانطفاء لنور الحياة، وهادم اللذات، كما يدعي أهل الغفلة والضلالة، بل يبين القرآن أن الموت مخلوق كالحياة، وأنه نعمة إلهية. فيقول المولى ﷻ: ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ **(الملك:٢)**.

ويقوم الإمام النورسي بإزالة ما علق فى الأذهان، من لبس تجاه الموت، وبيان بعض مقاصد القرآن تجاهه، فيقول *رحمه الله*[1]:

بالنسبة لكون الموت مخلوقاً: فقد وضح لنا أن الموت فى حقيقته هو: تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها؛ إذ كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا، هو بخلق وبتقدير إلهى، كذلك ذهابها من الدنيا، هو أيضاً بخلق وتقدير وحكمة وتدبير إلهى؛ لأن موت أبسط الأحياء -وهو النبات- يُظهر لنا نظاماً دقيقاً وإبداعاً للخلق، ما هو أعظم من الحياة نفسها وأنظم منها.. فموت الأثمار والبذور والحبوب، الذى يبدو ظاهراً تفسخاً وتحللاً، هو فى الحقيقة عبارة عن عجن لتفاعلات كيمياوية متسلسلة فى غاية الانتظام، وامتزاج لمقادير العناصر فى غاية الدقة والميزان، وتركيب وتشكل للذرات بعضها ببعض، فى غاية الحكمة والبصيرة، بحيث أن هذا الموت الذى لا يرى، وفيه هذا النظام الحكيم والدقة الرائعة، هو الذى يظهر بشكل حياة نامية، للسنبل وللنبات الباسق المثمر. وهذا يعنى أن موت البذرة، هو مبدأ حياة النبات الجديدة، أزهاراً وأثماراً.. بل هو بمثابة عين حياته الجديدة؛ فهذا الموت إذن مخلوق منتظم كالحياة..

وكذلك فان ما يحدث فى معدة الإنسان، من موت لثمرات حية، أو غذاء حيوانى، هو فى حقيقته بداية ومنشأ لصعود ذلك الغذاء، فى أجزاء الحياة

---

(١) ص ٨ من المكتوبات (المكتوب الأول).

الإنسانية الراقية. فذلك الموت إذن مخلوق أكثر انتظاماً من حياة تلك الأغذية.

فلئن كان موت النبات -وهو في أدنى طبقات الحياة- مخلوقاً منتظماً بحكمة، فكيف بالموت الذي يصيب الإنسان، وهو في أرقى طبقات الحياة؟ فلا شك أن موته هذا، سيثمر حياة دائمة في عالم البرزخ، تماماً كالبذرة الموضوعة تحت التراب، والتي تصبح بموتها، نباتاً رائعاً في الجمال والحكمة، في (عالم الهواء).

أما كيف يكون الموت نعمة؟

فالجواب: سنذكر أربعة وجوه فقط، من أوجه النعمة والامتنان الكثيرة للموت:

أولها: الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا، ومن تكاليف المعيشة المثقلة. وهو باب وصال في الوقت نفسه، مع تسعة وتسعين من الأحبة الأعزاء في عالم البرزخ، فهو إذن نعمة عظمى!

ثانيها: أنه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي، وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعم بحياة فسيحة خالدة مستنيرة، لا يزعجها خوف، ولا يكدرها حزن ولا هم.

ثالثها: أن الشيخوخة وأمثالها، من الأسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبين مدى كون الموت نعمة، تفوق نعمة الحياة. فلو تصورت أن أجدادك، مع ما هم عليه من أحوال مؤلمة، قابعون أمامك حالياً مع والديك، اللذين بلغا أرذل العمر، لفهمت مدى كون الحياة نقمة، والموت نعمة. بل يمكن إدراك مدى الرحمة في الموت، ومدى الصعوبة في إدامة الحياة أيضاً، بالتأمل في تلك الحشرات الجميلة، العاشقة للأزاهير اللطيفة، عند اشتداد وطأة البرد القارس في الشتاء عليها.

رابعها: كما أن النوم راحة للإنسان ورحمة، ولاسيما للمبتلين والمرضى

والجرحى، كذلك الموت -الذى هو أخو النوم- رحمة ونعمة عظمى، للمبتلين ببلايا يائسة، قد تدفعهم إلى الانتحار.

أما أهل الضلال، فالموت لهم كالحياة نقمة عظمى، وعذاب فى عذاب، مصداقاً لقول الحق جل شأنه: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ (الجاثية:٢١).

وبذلك نكون قد عرضنا مؤشرا تقريبياً، لكيفية معالجة القرآن لمشكلة من مشكلات الإنسان النفسية وهى الرعب من مواجهة الموت وفراق الدنيا والأحبة.. وننتقل إلى مشكلة أخرى.

المشكلة النفسية الثانية

الإحساس بالضياع والعدم والعبث من الوجود

إن تلك المشكلة تنشأ من البعد عن الله، فمادام الله موجوداً، وعلمه يحيط بكل شىء، فإن عالم المؤمن تظلله الطمأنينة والأمن والسكينة، بينما دنيا الكفار زاخرة بالعدم والفراق والانعدام، ومليئة بالعبث والفناء.. فالإيمان مثلما ينقذ الإنسان من الإعدام الأبدى أثناء الموت، كما وضحنا فى النقطة السابقة، فهو ينقذ دنيا كل شخص أيضاً من ظلمات العدم والانعدام والعبث[1].. بينما الكفر، ولاسيما الكفر المطلق. فإنه يعدم ذلك الإنسان، ويعدم دنياه الخاصة به بالموت. ويلقيه فى ظلمات جهنم معنوية، محولاً لذائذ حياته آلاما وغصصا.

ومما يوضح هذه الحقيقة، ما يدور على الألسنة من قول مشهور: "من كان له الله، كان له كل شىء، ومن لم يكن له الله، لم يكن له شىء".

---

(١) ص ٥٤٠ من الكلمات (الذيل الثانى من الكلمة الخامسة والعشرين).

كيف يضاعف البعد عن الله إحساس الإنسان بالضياع؟

يجيب على هذا السؤال الإمام النورسي، مستمداً تلك الإجابة من أسرار قول الله ﷻ: ﴿ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ۞ ثم رددناه أسفل سافلين ۞ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ (التين: ٤-٦).

فيقول رحمه الله[1]: إن طريق الشرك والضلالة، والسفاهة والفسوق، يهوى بالإنسان إلى منتهى السقوط، وإلى أسفل سافلين، ويلقى على كاهله الضعيف العاجز، في غمرة آلام غير محدودة، عبئا ثقيلاً لا نهاية لثقله.. ذلك لأن الإنسان إن لم يعرف الله ﷻ، وإن لم يتوكل عليه، يكون بمثابة حيوان فان، يتألم دوماً ويحزن باستمرار، ويتقلب في عجز وضعف لا نهاية لهما، ويتلوى في حاجة وفقر لا نهاية لهما، ويتعرض لمصائب لا حد لها، ويتجرع آلام الفراق، من الموجودات التي استهواها، ونسج بينه وبينها خيوط العلاقات، فيقاسي ومازال يقاسي، حتى يغادر ما بقي من أحبانه نهاية المطاف، ويفارقهم جزعاً وحيداً غريباً، إلى ظلمات القبر.

وبينما يقاسي هذا الإنسان ما يقاسي من وضعه، إذا بأحوال الدنيا التي يتعلق بها ترهقه دوما، وإذا بأوضاع بني الإنسان الذي يرتبط بهم، تنهكه باستمرار، ذلك لظنه أن هذه الأحداث والوقائع ناشئة من لعب الطبيعة وعبث المصادفة، وليست من تصرف واحد أحد حكيم عليم، ولا من تقدير قادر رحيم كريم، فيعاني مع آلامه هو، آلام الناس كذلك، فتصبح الزلازل والطاعون والطوفان، والقحط والغلاء والفناء والزوال، وما شابهها مصائب قاتمة، وبلايا مزعجة معذبة.

فهذا الإنسان الذي اختار بنفسه هذا الوضع المفجع، لا يثير إشفاقاً عليه، ولا رثاء على حاله.. فهو يتوهم بسكر الكفر، وجنون الضلالة، الناشئين من سوء اختياره، أن الدنيا التي هي مضيف الصانع الحكيم، لعبة المصادفة

---

(١) ص ٧٥٥ : ٧٥٧ من الكلمات (المبحث الثاني من الكلمة الثانية والثلاثين).

العمياء، وألعوبة الطبيعة الصماء.. ويتصور تجديد المصنوعات، لتجليات الأسماء الحسنى، وعبورها إلى عالم الغيب مع تيار الزمن، بعد أن أنهت مهامها، واستنفدت أغراضها، كأنها تصب في بحر العدم، ووادي الانعدام، وتغيب في شواطئ الفناء.. ويتخيل أصوات التسبيح والتحميد، التي تملأ الأكوان والعوالم، أنينا ونواحاً، يطلقه الفانون في فراقهم الأبدي.. ويحسب صحائف هذه الموجودات التي هي رسائل صمدانية رائعة، خليطاً لا معنى له ولا مغزى.. ويخال باب القبر الذي يفتح الطريق إلى عالم الرحمة الفسيح، نفقا يؤدي إلى ظلمات العدم.. ويتصور الأجل الذي هو دعوة الوصال واللقاء بالأحباب الحقيقيين، هو أوان فراق الأحبة جميعهم.

نعم! إن الذي يعيش في دوامة هذه التصورات والأوهام، يلقي بنفسه في أتون عذاب دنيوي أليم، ففضلاً عن أنه لا يكون أهلاً لرحمة ولا لرأفة، يستحق عذاباً شديداً، لتحقيره الموجودات - باتهامها بالعبثية، وتزييفه الأسماء الحسنى بإنكار تجلياتها، وإنكاره الرسائل الربانية، برده شهاداتها على الوحدانية.

فيا أيها الضالون الغافلون: إن ما أودع في فطرتكم من استعداد المحبة والمعرفة، ينبغي أن تتوجه إلى صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، ولكنكم قد بذلتموها -بدلا من غير مشروع- لأنفسكم وللدنيا، فتعانون مستحقين عقابها، وذلك بسر القاعدة: "إن نتيجة محبة غير مشروعة، مقاساة عذاب أليم بلا رحمة". لأنكم وهبتم أنفسكم المحبة التي تخص الله ﷻ، فتعانون بلايا محبوبتكم التي لا تعد، إذ لم تمنحوها راحتها الحقيقية.. وكذا لا تسلمون أمرها بالتوكل إلى المحبوب الحق، وهو الله القدير المطلق، فتقاسون الألم دائما.

ألا ما أكثف حجاب السفاهة والسكر، الذي يخدر الشعور والإحساس، وتبا لعقل أولئك الضالين..

العلاج القرآني لمشكلة الضياع الإنساني[1]:

إن أحوال الدنيا المضطربة، التي لا قرار فيها ولاثبات، وكلها تقلبات، تلح على فكر الإنسان، بهذا السؤال:

"إن جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في أيدينا، بل يفنى ويغيب عنا، أليس هناك من علاج لهذا؟ ألا يمكن أن يحل البقاء بهذا الفناء؟!"

وبينما الإنسان غارق في هذا التفكير، إذا به يسمع صدى القرآن السماوي، يدوي في الآفاق، ويقول له: نعم إن هناك علاجاً لهذا الداء، يتمثل في ذلك الدواء: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (التوبة:١١١).

فالعلاج هو: بيع الأمانة إلى مالكها الحقيقي.. وفي هذا البيع خمس درجات من الربح، في صفقة واحدة:

الربح الأول: الإنسان الفاني يجد البقاء، لأن العمر الزائل الذي يوهب للحي القيوم، ويبذل في سبيله سبحانه، ينقلب عمراً أبدياً باقياً.

الربح الثاني: الثمن هو الجنة.

الربح الثالث: يرتفع ثمن كل عضو وحاسة، ويغلو من الواحدة إلى الألف.

فمثلاً: العقل عضو وآلة: إن لم يستعمله الإنسان في سبيل الله، جعله في سبيل الهوى والنفس، ويتحول إلى عضو مشئوم مزعج، إذ يحمله آلام الماضي الحزينة، وأهوال المستقبل المخيفة، فيحاول أن يهرب من واقع حياته، وينغمس في اللهو أو السكر، إنقاذاً لنفسه من إزعاجات عقله.. ولكن إذا بيع العقل إلى الله، واستعمل في سبيله ولأجله، فإنه يكون مفتاحاً رائعاً، بحيث يفتح مالا يعد من خزائن الرحمة الإلهية، وكنوز الحكمة الربانية: فأينما ينظر صاحبه، وكيفما يفكر، يرى الحكمة الإلهية في كل شيء، ويشاهد

---

(١) ص ٢١ : ٢٥ من الكلمات (الكلمة السادسة).

الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشد رباني، يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة. ويمكن قياس بقية الأعضاء والحواس على هذا.. وبعدها يُفهم كيف أن المؤمن يكسب حقا خاصية تليق بالجنة.

الربح الرابع: أن الإنسان ضعيف بينما مصائبه كثيرة، وهو فقير. ولكن حاجته في ازدياد، وعاجز إلا أن تكاليف عيشه مرهقة، فإن لم يتوكل هذا الإنسان على العلي القدير، ولم يستند إليه، فسيظل يقاسي في وجدانه آلاما دائمة، وتخنقه حسراته وكدحه العقيم.

الربح الخامس: أنه من المتفق عليه إجماعاً، بين أهل الاختصاص والشهود والذوق والكشف أن العبادات والأذكار والتسبيحات التي تقوم بها الأعضاء، عندما تعمل ضمن مرضاته سبحانه، تتحول إلى ثمار طيبة لذيذة من ثمار الجنة، وتقدم إلى الإنسان في وقت يكون في أمس الحاجة إليها..

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾ (**لقمان: ٢٢**).

وهنا نتساءل: هل اقتصر القرآن على هذا المحور في العلاج؟

حاشا لله أن يعالج مشكلة ضخمة كهذه، تهد كيان الإنسان وتكاد تقضي عليه، في اتجاه واحد فقط. **بل شمل العلاج عدة محاور منها:**

* بيان أهمية قيمة حياة الإنسان وأنه لم يخلق عبثاً(١):

لقد حفلت آيات الكتاب الكريم، ببيان أهمية الإنسان، حيث خلقه الله في أحسن تقويم، حتى أصبح مرآة جامعة لأسمائه الحسنى، وليكون أجمل معجزات القدرة الإلهية من كنوز. ووهب له استعداداً فطرياً سامياً، يمكنه من حمل الأمانة الكبرى، التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، أي

---

(١) ص ٩٤ من الكلمات (الحقيقة الحادية عشرة من الكلمة العاشرة).

خلقه ليعرف صفات خالقه سبحانه الشاملة المحيطة، وشئونه الكلية، وتجلياته المطلقة، بموازينه الجزئية، وبمهاراته الضئيلة.

إن تلك الآيات تحقق في مضمونها غايات كثيرة، ما يخصنا هنا: أنها تحمى الإنسان من الضياع والعدم والعبث، ببيان أهميته فى الحياة، وبعث الثقة فى نفسه لاعتزازه بإيمانه، وبث أهداف سامية في حياته، تجعل خطواته ثابتة فى الحياة، لأنه يستند إلى نقطة ارتكاز عظيمة، تحدد الهدف والغاية والمنتهى لأنه يعى بيقين قول الحق ﷻ: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (المؤمنون: ١١٥).

• بيان أنه لا عبثية ولا إسراف فى خلق الموجودات:

احتشد القرآن الكريم بالآيات الدالة على عظمة الله وقدرته فى خلق الكون. وحاشا لله أن يخلق شيئا عبثاً فهو القائل ﷻ: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ (الرعد: ٨).

ويخاطب الإمام النورسى من توهم الوجود عبثاً قائلاً[١]: يا من ابتلى بحب هذه الحياة، حتى حسبت أن العلة الغائية فى الحياة وبقائها، وأن كل ما أودعته القدرة الأزلية، فى جوهر الإنسانية، وذوى الحياة من الجهازات العجيبة والتجهيزات الخارقة، إنما أعطاها الفاطر الحكيم، لحفظ هذه الحياة السريعة الزوال ولأجل البقاء.. كلا ثم كلا. إذ لو كان بقاء الحياة هو المقصود من كتاب الحياة، لصار أظهر وأبهر وأنور دلائل الحكمة والعناية والانتظام، مثال العبثية والإسراف. بل يرجع إلى الحى من ثمرات الحياة وغاياتها بمقدار درجة مالكية الحى للحياة، وتصرفه الحقيقى فيها.. أما سائر الثمرات والغايات، فراجعة إلى المحيى ﷻ بالمظهرية لتجليات أسمائه، وبإظهار ألوان وأنواع جلوات رحمته، فى جنته فى الحياة الأخروية، التى

---

(١) ص ١٩٣ من المثنوى العربى النورى (حباب).

هى ثمرات بذور هذه الحياة الدنيوية.

- ربط الإنسان بصانعه الجليل[١]:

إن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويؤكد القرآن على تلك الوثائق الشديدة، فالإيمان إنما هو انتساب. لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية، من حيث تجلى الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده. أما الكفر فيقطع تلك النسبة وذلك الانتساب، وتغشى ظلمته الصنعة الربانية وتطمس على معالمها، فتنقص قيمة الإنسان، حيث تنحصر فى مادته فحسب. وقيمة المادة لا يُعتد بها، فهى فى حكم المعدوم، لكونها فانية زائلة، وحياتها حياة حيوانية مؤقتة. وهكذا نجد الكون كله، يردد سنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ۚ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (البقرة: ٢٥٧).

- مد الإنسان بالقوة بدعوته إلى التوكل على الله:

إن من الأسباب القوية لخروج الإنسان من حالة الضياع والعدم والعبث، هو التوكل على الله، حيث حفلت آيات القرآن الكريم بالدعوة إلى ذلك. ومنها: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (الطلاق: ٣)، ويشرح الإمام النورسى ذلك بقوله[٢]: كما أن الإيمان نور فهو قوة أيضاً. فالإنسان الذى يظفر بالإيمان الحقيقى، يستطيع أن يتحدى الكائنات، ويتخلص من ضيق الحوادث، مستنداً إلى قوة إيمانه، فيبحر متفرجاً على سفينة الحياة، فى خضم أمواج الأحداث العاتية، بكمال الأمان والسلام قائلاً: توكلت على الله.. ويسلم أعباءه الثقيلة، أمانة إلى يد القدرة، للقدير المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا، مطمئن البال فى سهولة وراحة، حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع أن يرتفع

---

١) ص ٣٤٨ من المثنوى (حبة).

٢) ص ٣٥٢ من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

طائراً إلى الجنة، للدخول إلى السعادة الأبدية.

أما إذا ترك الإنسان التوكل، فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل ستجذبه تلك الأثقال إلى أسفل سافلين. فالإيمان إذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين.

ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردها كلية، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي رعايتها ومداراتها. أما التشبث بها أو الأخذ بها، فهو نوع من الدعاء الفعلي. فطلب المسببات إذن وترقب النتائج، لا يكون إلا من الحق ﷻ، وأن المنة والحمد والثناء، لا ترجع إلا إليه وحده..

• فتح باب الدعاء أمام الإنسان (١):

إن فتح باب الدعاء أمام الإنسان، من أجل النعم الإلهية، حيث تجعله وسيلة قاطعة، ووساطة بين المؤمن وربه، بما يتفق مع الفطرة الإنسانية، التي تتلهف إليه بشدة وشوق، حيث الدعاء يخفف وطأة المشاكل على الإنسان، وتجعله إنساناً حقاً، بل سلطاناً، بينما الكافر المحروم من الدعاء، يصبح حيواناً مفترساً في غاية العجز. ولعل البعض يتساءل: إننا كثيراً ما ندعو الله فلا يُستجاب لنا، رغم أن الآية عامة تصرح بأن كل دعاء مستجاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ (غافر:٦٠).

ويجيب على ذلك الإمام النورسي بقوله: إن استجابة الدعاء شيء، وقبوله شيء آخر، فكل دعاء مستجاب، إلا أن قبوله وتنفيذ المطلوب نفسه، منوط بحكمة الله سبحانه.. فمثلاً: يستصرخ طفل عليل الطبيب قائلاً: "اعطني هذا الدواء". فالطبيب حينذاك إما أن يعطيه الدواء نفسه، أو يعطيه دواء أكثر نفعاً

---

(١) ص ٣٥٤ من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

وأفضل له، أو يمنع عنه العلاج نهائياً. وذلك حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وكذلك الحق تبارك وتعالى ﴿وله المثل الأعلى﴾: فلأنه حكيم مطلق، ورقيب حسيب فى كل آن، فهو سبحانه يستجيب دعاء العبد.. وباستجابته يزيل وحشته القاتمة، وغربته الرهيبة، مبدلاً إياها أملاً وأنساً واطمئناناً. وهو سبحانه إما أن يقبل مطلب العبد، ويستجيب له مباشرة، بالدعاء نفسه، أو يمنحه أفضل منه، أو يرده، وذلك حسب اقتضاء الحكمة الربانية، لا حسب أهواء العبد المتحكمة، وأمانيه الفاسدة.

وفى ختام الكلام عن أهمية الدعاء، يتوجه الإمام النورسى بنصيحة إلى الإنسان العاجز الفقير: ألا يتخلى عن مفتاح خزينة الرحمة الواسعة، ومصدر القوة المتينة، ألا وهو الدعاء. فيجب أن يتشبث به ليرتقى إلى أعلى على الإنسانية، ويتخلص من الأعباء النفسية.

وننتقل إلى مشكلة أخرى من مشكلات الإنسان النفسية، محاولين التعرف على كيفية علاجها، من أدوية الحكمة الربانية، المتمثلة فى الآيات القرآنية.

المشكلة النفسية الثالثة

الشعور بالاغتراب فى مواجهة الكون

قد يظن البعض أن هذه المشكلة تماثل المشكلة السابقة، ويتساءل: لماذا أفردنا لها عنواناً خاصاً؟

والحق أن هذه المشكلة قد تشابه سابقتها فى بعض جوانبها، ولكنها تختلف عنها اختلافاً جذرياً: فالسابقة لا تجابه غالباً إلا الكفار، أو من هو على شفا حفرة من الكفر.. أما هذه فقد تواجه كلا من المسلم والكافر بدرجات

متفاوتة.

وقد اهتم الإمام النورسى اهتماماً كبيراً بعلاج هذه المشكلة، من وحى آيات القرآن الكريم، فى مواطن عديدة من رسائل النور، نتخير منها عدة نقاط، تكون مؤشرا لتوضيح الهدف من بحثنا(١):

يقول الإمام النورسى مخاطباً الإنسان فى كل زمان ومكان(٢):

- إن كنت تريد أن تعرف **أثمن مفتاحين**، يحلان لروح البشر طلسم الكون ولغزه، ويفتحان أمامها باب السعادة والهناء فهما: الإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر و...﴾ (البقرة: ١٧٧).
- وأن **أنفع علاجين** لذلك هما: توكل الإنسان على خالقه صابرا، والرجاء من رزاقه شاكراً: ﴿أولئك يرجون رحمة الله﴾ (البقرة: ٢١٨).
- وأن الإنصات إلى القرآن الكريم، والانقياد لحكمه، وأداء الصلوات، وترك الكبائر، أغلى زاد للآخرة، وأسطع نور للقبر، وأيسر تذكرة مرور فى رحلة الخلود، وأنه لولا الدين، لتحولت الدنيا إلى سجن رهيب: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (آل عمران: ١٩).

ونأتى إلى تفصيل تلك النقاط الثلاث، لبيان كيف عالج القرآن إحساس الإنسان بالاغتراب فى مواجهة الكون:

- بالنسبة **للنقطة الأولى** وهى: أن الإيمان بالله واليوم الآخر، يحلان لروح البشر، طلسم الكون ولغزه: إن الإيمان بالله واليوم الآخر: يحفزان الإنسان إلى رؤية الجدة بتجدد كل شىء، بل يكون مبعث التأمل فى ألوان مختلفة متنوعة، وأنواع متباينة لمعجزات إبداع الخالق ذى الجلال،

(١) وعلى من يريد التوسع فى تلك النقطة أو فى غيرها أن يرجع إلى الينبوع الأصلى الذى استقينا منه البحث وهو رسائل النور القيمة. جازى الله عنا الإمام النورسى خير الجزاء.

(٢) ص ٢٦ : ٣٧ من الكلمات (الكلمة السابعة).

وخوارق قدرته وتجليات رحمته سبحانه، ومشاهدتها باستمتاع وبهجة كاملين. بمثل ما يضفى تبدل المرايا العاكسة لألوان نور الشمس، وتغير الصور فى شاشة السينما، من جمال وروعة، إلى تكون المناظر الجذابة وتشكلها.

وهكذا بالنسبة للإنسان المؤمن، عندما ينظر إلى الكون، يردد بلسان الحال والمقال[1]: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ (النور: ٣٥)، فتصطبغ الكائنات فى نظره بالنور الإلهى، ويتيقن بأن كل حادثة من حوادث الكون - كالأعاصير والزلازل والطاعون وأمثالها- إنما هى مسخرات موظفات مأمورات.. ويرى أن عواصف الربيع والمطر، وأمثالها من الحوادث، التى تبدو حزينة سمجة، ما هى فى الحقيقة والمعنى، إلا مدار الحكم اللطيفة، حتى إنه يرى الموت مقدمة لحياة أبدية، ويرى القبر باب سعادة خالدة.. وبالقياس على هذا المنوال، فإن الإيمان بالله واليوم الآخر، نور ينير الكائنات، ويظهر بارزا جميع المكاتيب الصمدانية المكتوبة عليه، مما يشعر الإنسان بالانسجام التام مع الكون، ويحرره نهائياً من الشعور بالاغتراب.

أما الإنسان الذى يعتمد على أنانيته وغروره، ويقع فى شراك ظلمات الغفلة، ويُبتلى بأغلال الضلالة القاتلة، فإنه يرى الكون كأنه أمواج ظلمات عاتية، تتدافع فيها الدواهى المذهلة والفواجع العظيمة، وكأنها تتأهب للانقضاض عليه، فيشعر بالاغتراب والوحشة فى مواجهة هذا الكون.

* بالنسبة **للنقطة الثانية**: وهى العلاجان:

فأحدهما: **التوكل على الله والتحلى بالصبر**، أى الاستناد إلى قدرة الخالق الكريم، والثقة بحكمته سبحانه.

---

(١) ص ٣٥٠ : ٣٥٢ من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

نعم، إن من يعتمد بهوية عجزه على سلطان الكون، الذى بيده أمر ﴿كن فيكون﴾ كيف يجزع ويضطرب؟ بل يثبت أمام أشد المصائب، واثقا بالله ربه، مطمئن البال، مرتاح القلب وهو يردد: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وهى بالنسبة للمؤمن فى حكم الإيقاظات الإلهية الحلوة، والالتفاتات الرحمانية لئلا يغفل.. فيسير فى الحياة على قاعدة: "خذ ما صفا.. ودع ما كدر". وهو بذلك لا يعانى الوحشة واليأس، لأنه يتمتع متعة ضيف عزيز، وكيف لا، وهو ضيف عند مضيف كريم.

وهكذا يتبين سر من أسرار الآية الكريمة: **﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ (النساء: ٧٩).**

فالإنسان المتوكل بحسن نيته، وحسن ظنه بالله، ينال الفيض والسعادة والإحسان العميم، أما الإنسان الظالم لنفسه، فإنه يعانى من الاغتراب واليتم، ويرتجف خوفاً وهلعاً من كل محدثات الكون.

أما العلاج الآخر: المتمثل فى الرجاء، فهو يشمل الدعاء والسؤال، ثم القناعة بالعطاء، والشكر عليه، والثقة برحمة الرزاق الرحيم، فمن كان ضيفا، لدى الذى فرض له وجه الأرض مائدة حافلة بالنعم، وجعل الربيع كأنه باقة أنيقة من الورود، وضعها بجانب تلك المائدة العامرة، بل نثرها عليه.. كيف يشعر هذا الضيف عند الجواد الكريم جل وعلا بالاغتراب؟ بل كيف تكون حوادث الدهر مؤلمة بالنسبة إليه؟ إنه يوقن أن الذى وهب الحياة وأنشأها، صنعة صمدانية معجزة تتلمع، وجعلها ربانية خارقة تتألق، هو وحده الذى يرعاها ويصرفها بحكمته وقضائه.

- بالنسبة **للنقطة الثالثة:** فإن جميع أهل الاختصاص والشهود، وجميع أهل الذوق والكشف، متفقون على أن زاد الآخرة، وذخيرة تلك الرحلة الطويلة المظلمة، ونورها وبراقها، ليس إلا امتثال أوامر القرآن الكريم، واجتناب نواهيه، وأداء الصلوات وترك الكبائر.

فالإنسان هو مثال مصغر لهذا العالم الكبير، والصلاة تحقق الانسجام التام والتوافق الكلي، بين الإنسان والكون، وتذكره بمعجزات القدرة الصمدانية، وهدايا الرحمة الإلهية، سواء منها السنوية، أو العصرية، أو الدهرية، بإشارات تصرفاتها اليومية العظيمة.. فعلى سبيل المثال[١]:

وقت الفجر إلى طلوع الشمس: يشبه ويذكر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الإنسان في رحم الأم، وباليوم الأول من الأيام الستة في خلق السماوات والأرض، فينبه الإنسان إلى ما في تلك الأوقات من الشئون الإلهية العظيمة.

أما وقت الظهر: فهو يشبه ويشير إلى منتصف الصيف، وإلى عنفوان الشباب، وإلى فترة خلق الإنسان في عمر الدنيا، ويذكر ما في ذلك كله، من تجليات الرحمة، وفيوضات النعمة.

أما وقت العصر: فهو يشبه موسم الخريف، وزمن الشيخوخة، وعصر السعادة، الذي هو عصر خاتم الرسل محمد ﷺ، ويذكر ما في ذلك كله، من الشئون الإلهية، والآلاء الرحمانية.

أما وقت المغرب: فإنه يذكر بغروب أغلب المخلوقات، وأفولها نهاية الخريف، ويذكر أيضا بوفاة الإنسان، وبدمار الدنيا عند قيام الساعة، ومع ذلك فهو يعلم التجليات الجلالية، ويوقظ الإنسان من نوم الغفلة وينبهه.

أما وقت العشاء: فيذكر بغشيان عالم الظلام، وستره آثار عالم النهار، بكفنه الأسود. ويذكر أيضاً بتغطية الكفن الأبيض للشتاء، وجه الأرض الميتة، وبوفاة حتى آثار الإنسان المتوفى، ودخولها تحت ستار النسيان، وبانسداد أبواب دار امتحان الدنيا نهائياً، ويعلن في ذلك كله تصرفات جلالية للقهار ذي الجلال.

---

(١) ص ٤٠ من الكلمات (الكلمة التاسعة).

أما وقت الليل: فإنه يذكر بالشتاء، وبالقبر، وبعالم البرزخ، فضلاً عن أنه يذكر روح الإنسان بمدى حاجتها إلى رحمة الرحمن.

أما التهجد في الليل: فإنه يذكر بضرورته لضياء ليل القبر، ولظلمات عالم البرزخ، وينبه ويذكر بنعم غير متناهية للمنعم الحقيقي، عبر هذه الانقلابات، ويعلن أيضاً عن مدى أهلية المنعم للحمد والثناء.

أما الصباح الثاني: فإنه يذكر بصباح الحشر.. فكما أن مجيء الصبح لهذا الليل، ومجيء الربيع لهذا الشتاء معقول وضروري وحتمي، فإن مجيء صباح الحشر، وربيع البرزخ، هما بالقطعية والثبوت نفسه.

وهكذا فإن الصلاة تمثل استغراق الإنسان، بالروح والقلب والعقل، مع الكون كله. مما يحميه من الإحساس بالاغتراب.

علاج شامل لتحقيق الانسجام مع الكون:

إن هذا العلاج الذي يذكره لنا الإمام النورسي، ليدل دلالة قاطعة، على قدمه الراسخة في عالم الحقيقة، إذ يقول رحمه الله[1]: إذا أردت أيتها النفس أن تنجي من ذل التسول أمام الكائنات، ومهانة الخوف أمام الحادثات، فعليك: ﴿بسم الله﴾ فهي ذكر جميع الموجودات بألسنة أحوالها. فالموجودات تؤدي وظائفها باسم الله.. فالبذيرات المتناهية في الصغر، تحمل فوق رءوسها باسم الله، أشجارا ضخمة وأثقالاً هائلة. أي أن كل شجرة تقول ﴿بسم الله﴾ وتملأ أيديها بثمرات من خزينة الرحمة الإلهية، وتقدمها إلينا.. وكل بستان يقول: ﴿بسم الله﴾ فيغدو مطبخا للقدرة الإلهية، تنضج فيه أنواع من الأطعمة اللذيذة.. وكل حيوان من الحيوانات ذات البركة والنفع -كالإبل والماعز والبقر- يقول: ﴿بسم الله﴾ فيصبح ينبوعا دفاقا للبن السائغ، فيقدم إلينا باسم الرزاق، ألطف مغذ وأنظفه.. وجذور كل نبات وعشب تقول ﴿بسم الله﴾

---

(١) ص ٦ : ٩ من الكلمات (الكلمة الأولى).

وتشق الصخور الصلدة باسم الله، وتتقبها بشعيراتها الحريرية الرقيقة، فيسخر أمامها باسم الله وباسم الرحمن، كل أمر صعب، وكل شيء صلد.

نعم إن هذه الكلمة الطيبة ﴿بسم الله﴾ كنز عظيم لا يفنى أبداً، إذ بها يرتبط عجز النفس، برحمة واسعة مطلقة، أوسع من الكائنات، ويتعلق فقرها بقدرة عظيمة، تمسك زمام الوجود، من الذرات إلى المجرات.. فالذى يتحرك ويسكن ويصبح ويمسى بهذه الكلمة ﴿بسم الله﴾ كمن انخرط فى الجندية، يتصرف باسم الدولة، ولا يخاف أحداً، حيث أنه يتكلم باسم القانون، وباسم الدولة، فينجز الأعمال، ويثبت أمام كل شيء.

و ﴿بسم الله﴾ يحقق الإنسان الانسجام مع الكون، ويبعد عنه كلية الإحساس بالاغتراب، الذى يحرمه من التمتع بنعمة الحياة.

وننتقل إلى مشكلة أخرى من مشاكل الإنسان النفسية، قلما ينجو منها أحد، ولكن يختلف الإحساس بها، من شخص لآخر حسب قوة الإيمان واليقين فى القلوب.

المشكلة النفسية الرابعة

عجز الإنسان فى مواجهة الحزن والآلام

إن الله سبحانه قد أدرج فى الإنسان عجزاً لا حد له، وفقراً لا نهاية له، إظهاراً لقدرته المطلقة وإبرازا لرحمته الواسعة. وقد خلقه على صورة معينة، بحيث يتألم بما لا يحصى من الجهات[1].

فالإنسان بما يحمل من ماهية جامعة، يتألم من الحمى البسيطة، كما يتألم

---

(١) ص ١٩ من اللمعات (اللمعة الثانية).

من زلزلة الأرض وهزاتها، وكما يتألم من زلزال الكون العظيم عند قيام الساعة. ويخاف من جرثومة صغيرة، كما يخاف من المذنبات الظاهرة في الأجرام السماوية(١).

فما هو العلاج القرآني، إذا داهم الإنسان الرهبة والخوف من كل مكان، وانقطعت أسباب الرجاء أمامه، وانسدت أبواب الأمل؟

الملاحظ أن القرآن يعالج المشكلات النفسية للإنسان وإنما على محورين:

المحور الأول: يشبه الإسعاف السريع، حيث تحتاج النفس البشرية إلى ما يسكن روعاتها، في حالة هلعها، وبعد ما تهدأ، تكون على استعداد لتلقي العلاج.. والإسعاف السريع هنا يتمثل في الدعاء.

المحور الثاني: هو علاج طويل المدى، يشمل تجهيز النفس مسبقا، لتحمل شدائد الحياة، ثم صقلها بحيث لا تنهار في مواجهتها.. وهذا يتمثل في التشريع بكل جوانبه.

بالنسبة للمحور الأول وهو الدعاء:

فقد علمنا الحبيب المصطفى ﷺ أن أفضل دعاء لمواجهة الكرب بكل أنواعه هو دعاء سيدنا يونس عليه السلام في بطن الحوت، حيث الليل الحالك، والبحر الهائج، والحوت الهائل(٢):

﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ (الأنبياء: ٨٧)، فإذا نظرنا بنور تلك المناجاة إلى أنفسنا: فنحن في وضع مخيف ومرعب، أضعاف ما كان فيه سيدنا يونس عليه السلام، حيث أن:

ليلنا: الذي يخيم علينا هو: المستقبل.. فمستقبلنا إذا نظرنا إليه بنظر

---

(١) ص ٩ من اللمعات (اللمعة الأولى).

(٢) ص ٦ : ٨ من اللمعات (اللمعة الأولى).

الغفلة، يبدو مظلماً مخيفاً، بل هو أحلك ظلاماً، وأشد عتامة، من الليل الذى كان فيه سيدنا يونس عليه السلام بمائة مرة.

وبحرنا هو: بحر الكرة الأرضية.. فكل موجة من أمواج هذا البحر المتلاطم، تحمل آلاف الجنائز، فهو إذن بحر مرعب رهيب، بمائة ضعف رهبة البحر الذى ألقى فيه عليه السلام.

وحوتنا هو: ما نحمله من نفس أمارة بالسوء.. فهى حوت يريد أن يلتقم حياتنا الأبدية ويمحقها. هذا الحوت أشد ضراوة من الحوت الذى ابتلع سيدنا يونس عليه السلام، إذ كان يمكنه أن يقضى على حياة أمدها مائة سنة، بينما حوتنا نحن، يحاول إفناء مئات الملايين، من سنى حياة خالدة هنيئة رغيدة.

فمادامت حقيقة وضعنا هكذا، فما علينا إلا الإقتداء بسيدنا يونس عليه السلام، والسير على هديه، معرضين عن الأسباب جميعا، مقبلين كلياً إلى ربنا، الذى هو مسبب الأسباب، متوجهين إليه بقلوبنا وجوارحنا، موقنين أنه لا يقدر أن يدفع عنا مخاوف المستقبل وأوهامه، ولا يزيل عنا أهوال الدنيا ومصائبها، ولا يبعد عنا أضرار النفس الأمارة بالسوء ودسائسها، إلا من كان المستقبل تحت أمره، والدنيا تحت حكمه، وأنفسنا تحت إدارته، فنقول: "لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين".

بالنسبة للمحور الثانى وهو أركان الشريعة:

يمكن القول إن أركان الشريعة بمجملها، الهدف منها صقل النفس البشرية، لمواجهة شدائد الحياة بصدر رحب وصبر جميل، كما قال سيدنا يعقوب بعد حزنه على فقد ابنه: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ (يوسف: ١٨).

ولما كانت الصلاة عماد الدين، فقد بين الإمام النورسى بطريقة رائعة، كمة توقيتاتها كما فرضها الله فى مد روح الإنسان بالقوة اللازمة، لمواجهة ،أحزان والآلام.. مستمدا تلك الإلهامات من أسرار الآية الكريمة:

﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون﴾ (الروم: ١٧-١٨).

فقال رحمه الله[١]:

إن الإنسان بفطرته ضعيف جدا، ومع ذلك فما أكثر المنغصات التى تورثه الحزن والألم، وهو فى الوقت نفسه عاجل جدا، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرة جداً. وهو فقير جداً، مع أن حاجاته كثيرة وشديدة. وهو كسول وبلا اقتدار، مع أن تكاليف الحياة ثقيلة عليه. وإنسانيته جعلته يرتبط بالكون جميعا، مع أن فراق ما يحبه، وزوال ما يستأنس به، يؤلمانه. وعقله يريه مقاصد سامية وثماراً باقية، مع أن يده قصيرة، وعمره قصير، وقدرته محدودة، وصبره محدود.

من أجل ذلك خصص المولى ﷻ الصلاة فى هذه الأوقات الخمسة المعينة، لمساعدة الإنسان على مواجهة ضعفه وفقره وعجزه:

ففى وقت الفجر: تكون روح الإنسان أحوج ما تكون، إلى أن تطرق بالدعاء والصلاة، باب القدير ذى الجلال، وباب الرحيم ذى الجمال، عارضة حالها أمامه، سائلة العون والتوفيق منه سبحانه. وما أشد افتقار تلك الروح إلى نقطة استناد، كى تتحمل ما سيأتى أمامها من أعمال، وما ستحمل على كاهلها من وظائف فى عالم النهار الذى يعقبه.

وعند وقت الظهر: ذلك الوقت الذى هو ذروة كمال النهار، وميلانه إلى الزوال، وهو أوان تكامل الأعمال اليومية، وفترة استراحة مؤقتة من عناء المشاغل.. وهو وقت حاجة الروح إلى التنفس والاسترواح، مما تعطيه هذه الدنيا الفانية، والأشغال المرهقة المؤقتة، من غفلة وحيرة واضطراب، فضلاً عن أنه أوان تظاهر الآلاء الإلهية.

---

(١) ص ٤١ : ٤٦ من الكلمات (الكلمة التاسعة).

فخلاص روح الإنسان من تلك المضايقات، وانسلالها من تلك الغفلة والحيرة، وخروجها من تلك الأمور التافهة الزائلة، لا يكون إلا بالالتجاء إلى باب القيوم الباقى -وهو المنعم الحقيقى- بالتضرع والتوسل أمامه، مكتوف اليدين، شاكراً حامداً لمحصلة نعمه المتجمعة، مستعينا به وحده، مع إظهار العجز أمام جلاله وعظمته بالركوع، وإعلان الذل والخضوع -بإعجاب وتعظيم وهيام- بالسجود أمام كماله الذى لا يزول، وأمام جماله الذى لا يحول.. وهذا هو أداء صلاة الظهر، فما أجملها، وما ألذها، وما أجدرها، وما أعظم ضرورتها!. ومن ثم فلا يحسبن الإنسان نفسه إنساناً، إن كان لا يفهم هذا.

وعند وقت العصر: الذى يذكر بالموسم الحزين للخريف، وبالحالة المحزنة للشيخوخة، وبالأيام الأليمة لآخر الزمان، وبوقت ظهور نتائج الأعمال اليومية. فهو فترة حصول المجموع الكلى الهائل للنعم الإلهية، أمثال التمتع بالصحة والتنعم بالعافية، والقيام بخدمات طيبة. وهو كذلك وقت الإعلان بان الإنسان ضيف مأمور، وبأن كل شيء يزول، وهو بلا ثبات ولا قرار، وذلك بما يشير إليه انحناء الشمس الضخمة إلى الأفول.

نعم إن روح الإنسان التى تنشد الأبدية والخلود، وهى التى خُلقت للبقاء والأبد، وتعشق الإحسان، وتتألم من الفراق، تنهض بهذا الإنسان ليقوم وقت العصر، ويسبغ الوضوء لأداء صلاة العصر، ليناجى متضرعا أمام باب الحضرة الصمدانية للقيوم الباقى، فيجد السلوان الحقيقى، والراحة التامة لروحه، بوقوفه بعبودية تامة، وباستعداد كامل، أمام عظمة كبريائه جلا وعلا.

وعند وقت المغرب: الذى يذكر بوقت غروب المخلوقات اللطيفة الجميلة، لعالم الصيف والخريف فى خزينة الودائع منذ ابتداء الشتاء، ويذكر بوقت دخول الإنسان القبر عند وفاته، وفراقه الأليم لجميع أحبته، وبوفاة الدنيا كلها بزلزلة سكراتها، وانتقال ساكنيها جميعا إلى عوالم أخرى.

لذا فالإنسان الذى يملك روحاً صافية كالمرآة المجلوة، يولى وجهه إلى عرش من هو باق، فيدوى بصوته قائلاً: (الله) فوق رؤوس هذه المخلوقات الفانية، مطلقاً يده منها، ليقول: ﴿الحمد لله﴾ أمام كماله الذى لا نقص فيه، مثنيا أمام رحمته الواسعة فيقول: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، ليعرض عبوديته واستعانته تجاه ربوبية مولاه. ثم يركع إظهاراً لعجزه وضعفه وفقره، مع الكائنات جميعا، مسبحا ربه العظيم قائلاً: ﴿سبحان ربى العظيم﴾. ثم يهوى إلى السجود أمام جمال ذاته الذى لا يزول، معلنا بذلك حبه وعبوديته، فى إعجاب وفناء وذل، تاركاً ما سواه سبحانه قائلاً: ﴿سبحان ربى الأعلى﴾. ويجلس للتشهد، فيقدم التحيات والصلوات الطيبات لجميع المخلوقات، هدية باسمه إلى ذلك الجليل الذى لا يزال، مجددا بيعته مع رسوله الأكرم، بالسلام عليه، مظهرا بها طاعته لأوامره، فيجدد إيمانه وينوره.. ثم يشهد على دلال الربوبية، وترجمان آيات كتاب الكون الكبيرة، ألا وهو محمد العربى ﷺ. وهكذا تغسل الصلاة الأحزان والآلام، بالصحبة الكريمة، والجلسة المباركة.

وعند **وقت العشاء**: ذلك الوقت الذى تغيب فيه فى الأفق، حتى تلك البقية الباقية من آثار النهار، ويخيم الليل فيه على العالم، فيذكر بالتصرفات الربانية لـ (مقلب الليل والنهار).. ويذكر كذلك بالإجراءات الإلهية لـ (مسخر الشمس والقمر).. ويذكر بالشئون الإلهية لـ (خالق الموت والحياة). فهو وقت يذكر بالتصرفات الجلالية، وبالتجليات الجمالية، لخالق الأرض والسماوات، وبانكشاف عالم الآخرة الواسع الفسيح الخالد العظيم، وبموت الدنيا الضيقة الفانية الحقيرة.. وهكذا فروح البشر التى هى فى منتهى العجز، وفى غاية الفقر والحاجة، والتى هى فى حيرة من ظلمات المستقبل، وفى وجل مما تخفيه الأيام والليالى.. تدفع الإنسان عند أدائه لصلاة العشاء -بهذا المضمون- أن لا يتردد فى أن يردد على غرار سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿لا أحب الآفلين﴾. فيلتجئ بالصلاة إلى باب من هو المعبود، الذى لم يزل، ومن هو المحبوب الذى لا يزال، مناجيا ذلك الباقى السرمدى، لينشر على أرجاء دنياه النور، من خلال صحبة خاطفة، ومناجاة موقتة، ولينور مستقبله،

ويضمد جراح الزوال والفراق، عما يحبه من أشياء وموجودات، ومن أشخاص وأصدقاء وأحباب، بمشاهدة توجه رحمة الرحمن الرحيم، وطلب نور هدايته، فينسى بدوره - تلك الدنيا التى أنسته، والتى اختفت وراء العشاء، فيسكب عبرات قلبه، ولوعة صدره، على عتبة باب تلك الرحمة، ليقوم بوظيفة عبوديته النهائية، قبل الدخول فيما هو مجهول العاقبة، ولا يعرف ما يفعل به بعده، من نوم شبيه بالموت، وليختم دفتر أعماله اليومية بحسن الخاتمة.

وبذلك استعرضنا دور الصلاة، فى علاج الإنسان، فى مواجهة الحزن والآلام، بصفة الصلاة من أساسيات الشريعة، ولا تسقط عن المسلم فى جميع أحواله (سفر - مرض - حرب - عجز..) وقد اكتسبت تلك الأهمية، لدورها الهيكلى فى صقل نفسية الإنسان.. ثم ننتقل إلى بيان دور القرآن الكريم بصفة عامة، فى مداواة الجروح التى تنشأ عن ضلالة النفوس، بانحرافها عن الصراط المستقيم.

كيف يداوى القرآن جميع جروح الإنسان[1]؟

- إنه يداوى ضعف الإنسان وعجزه وفقره، واحتياجه، بالتوكل على القدير الرحيم، مسلماً أثقال الحياة وأعباء الوجود، إلى قدرته سبحانه وإلى رحمته الواسعة، دون أن يحملها على كاهل الإنسان، بل يجعله مالكاً لزمام نفسه وحياته، واجداً له بذلك مقاماً مريحاً، ويعرفه بأنه ليس بحيوان ناطق، بل هو إنسان بحق، وضيف عزيز مكرم عند الملك الرحمن.

(١) ص ٧٥٩ : ٧٦١ من الكلمات (الموقف الثالث من الكلمة الثانية والثلاثين. ومن يريد المزيد من التوسع فعليه الرجوع إلى: رسالة المرضى ص ٣١٥ : ٣٩٩ من اللمعات، رسالة الشيوخ ص ٣٤٠ : ٤٨٠ من اللمعات، رسائل بعث بها الإمام النورسى فى سجن "دنيزلى" إلى طلابه ص ٣٤٨ : ٤٠٢ من الشعاعات).

- ويداوى أيضا تلك الجروح الإنسانية، الناشئة من فناء الدنيا وزوال الأشياء، ومن حب الفانيات. يداويها بلطف وحنان، بإظهاره الدنيا دار ضيافة الرحمن، ومبينا أن ما فيها من الموجودات، هي مرايا الأسماء الحسنى، وموضحا أن مصنوعاتها رسائل ربانية، تتجدد كل حين بإذن ربها، فينقذ الإنسان من قبضة ظلمات الأوهام.

- ويداوى أيضا تلك الجروح التي يتركها الموت، الذى يتلقاه أهل الضلالة، فراقاً أبديا عن الأحبة جميعاً.. ولكنه يبين أن الموت مقدمة الوصال واللقاء مع الأحباء، الذين رحلوا إلى عالم البرزخ، والذين هم الآن فى عالم البقاء، ويثبت أن ذلك الفراق هو عين اللقاء.

- ويزيل كذلك أعظم خوف للإنسان، بإثباته أن القبر باب مفتوح إلى عالم الرحمة الواسعة، وإلى دار السعادة الأبدية، وإلى رياض الجنان، وإلى بلاد النور للرحمن، مبينا أن سياحة البرزخ، التى هى أشد ألماً وأشقى سياحة، عند أهل الضلالة، هى أمتع سياحة وآنسها وأسرها.. إذ ليس القبر فم ثعبان مرعب، بل هو باب إلى روضة من رياض الجنة.

- ويقول القرآن للمؤمن: إن كانت إرادتك واختيارك جزئية، ففوض أمرك لإرادة مولاك الكلية.. وإن كان اقتدارك ضعيفا، فاعتمد على قدرة القادر المطلق. وإن كانت حياتك فانية وقصيرة، ففكر بالحياة الباقية الأبدية.. وإن كان عمرك قصيرا فلا تحزن، فإن لك عمراً مديداً.. وإن كان فكرك خافتاً، فادخل تحت نور شمس القرآن الكريم، وانظر بنور الإيمان، كى تمنحك كل آية من الآيات القرآنية نورا كالنجوم المتلألئة الساطعة، بدلا من ضوء فكرك الباهت.. وإن كانت لك آمال وآلام غير محدودة، فإن ثواباً لانهاية له، ورحمة لا حد لها ينتظرانك.. وإن كانت لك غايات ومقاصد لا تحد، فلا تقلق متفكراً بها، فهى لا تُحصر فى هذه الدنيا، بل مواضعها ديار أخرى، ومانحها جواد كريم واسع العطاء.

- ويخاطب الإنسان أيضا ويقول:

أيها الإنسان! أنت لست مالكاً لنفسك، بل أنت مملوك للقادر المطلق القدرة، والرحيم المطلق الرحمة، فلا ترهق نفسك بتحميلها مشقة حياتك، فإن الذى وهب الحياة هو الذى يديرها.

ثم إن الدنيا ليست سائبة دون مالك، كى تقلق عليها، وتكلف نفسك حمل أعبائها، وترهق فكرك فى أحوالها. ذلك لأن مالكها حكيم ومولاها عليم، وأنت لست إلا ضيفا لديه، فلا تتدخل بفضول فى الأمور، ولا تخلطها من غير فهم.

ثم أن الإنسان والحيوان ليسوا موجودات مهملة، بل موظفون مأمورون، تحت هيمنة حكيم رحيم وتحت إشرافه. فلا تجرع روحك ألماً، بالتفكر فى مشاق أولئك وآلامهم، ولا تقدم رأفتك عليهم، بين يدى رحمة خالقهم الرحيم.

ثم أن زمام أولئك الذين اتخذوا طور العداء معك، ابتداء من الميكروبات إلى الطاعون والطوفان والقحط والزلازل، فلا تحمل تجاههم من الهموم أكثر مما ينبغى، لأن زمام كل شىء بيد الرحيم الحكيم سبحانه.. فهو حكيم لا يصدر منه عبث، وهو رحيم واسع الرحمة، فكل ما يعمله فيه أثر من لطف ورأفة.

- ويقول أيضا:

إن هذا العالم، مع أنه فان، فإنه يهيئ لوازم العالم الأبدى.. ومع أنه زائل ومؤقت، إلا أنه يؤتى ثمرات باقية، ومع أن لذائذه قليلة وآلامه كثيرة، إلا أن لطائف الرحمن الرحيم وتكرمه وتفضله، هى بذاتها لذات حقيقية لا تزول، أما الآلام فهى الأخرى تولد لذات معنوية، من جهة الثواب الأخروى.. فما دامت الدائرة المشروعة كافية، ليأخذ كل من الروح والقلب والنفس، لذاتها ونشواتها جميعا، فلا داعى إذن أن تلج فى الدائرة غير المشروعة، لأن لذة واحدة من هذه الدائرة، قد يكون لها ألف ألم وألم، فضلا عن أنها سبب الحرمان، من لذة تكريم الرحمن الكريم، التى

تعتبر لذة خالصة زكية دائمة خالدة.

وهكذا فإن القرآن الكريم يأخذ بيد الإنسان -بالإيمان والعمل الصالح- ويرفعه من أسفل سافلين إلى أعلى عليين ، فيردم الأغوار العميقة فى نفسه، بمراتب رقى معنوى وروحى. وكذا ييسر له رحلته الطويلة المضنية العاصفة نحو الأبدية، ويهونها عليه، وذلك بإبرازه الوسائط والوسائل التى يمكن أن يقطع بها مسافة ألف سنة، بل خمسين ألف سنة فى يوم واحد.. ومن تلك الوسائط، تلك الإشعاعات النورانية التى تمسح ما على الصدور، وتنقذ النفوس من هلع الأحزان والمصائب. حيث يقول المولى ﷻ: **﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ۞ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ۞ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧).**

المشكلة النفسية الخامسة

الخوف من الجوع وفوات الرزق

مما لاشك فيه: أن هموم العيش الثقيلة من أول ما يشغل بال الناس، حتى أنه قد تدفع أحيانا الكرامة والشرف ثمناً ورشوة له، بل قد تسلب المقدسات الدينية مقابل ذلك.. ويفهم من بعض الروايات أن الجوع سيؤدى دوراً مهما، فى فتنة آخر الزمان، وأن أهل الضلالة سيحاولون بهذا التجويع، إغراق أهل الإيمان الضعفاء الجائعين، فى متطلبات همـوم العيش، حتى ينسونهم مشاعرهم الدينية، أو يجعلونها فى المرتبة الثانية أو الثالثة، بحيث يجد أهل الدين أنفسهم معذورين قائلين: ماذا نعمل إنها ضرورة فيتركون جادة الحق، نهاثا وراء متطلبات العيش، كما تسوق المصالح الدنيوية، كثيراً من أهل الحقيقة وأهل الطريقة، إلى نوع من المنافسة، التى تجر أوخم العواقب على

حقائق الدين والعقيدة[١].

فكيف عالج القرآن تلك القضية الخطيرة، التى تؤثر على نفسية الإنسان، بشكل قد يودى به إلى التهلكة؟

لقد جعل القرآن قضية الرزق، من القضايا اليقينية، التى تقوم عليها العقيدة الإسلامية، وأنها من الغيبيات التى يستأثر بها علم الله، وذلك حتى لا تحتل تلك القضية، أكثر من المكانة اللائقة بها، من تفكير المسلم ووجدانه، فيتحول عن مساره العقائدى، يلهث وراء لقمة العيش، غير مبالى بما ينتهك من حرمات الله. فقال المولى ﷻ: **﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ (لقمان: ٣٤).**

ويرى الإمام النورسى ﵀: أن الضمان الإلهى للرزق، هو من حقائق التوحيد والربوبية، ويسجل ذلك تحت عنوان:

حقيقة الرحيمية والرزاقية[٢]: أى حقيقة إعطاء الرزق إلى جميع ذوى الحياة، وبخاصة ذوى الأرواح، وبخاصة العاجزين والضعفاء، وبخاصة الأطفال والصغار، على وجه الأرض كافة، وفى جوفها وفى جوها وفى بحرها.. إعطاؤهم أرزاقهم كافة، سواء المادية المعدية منها، أو المعنوية القلبية، بكل شفقة ورأفة.. وذلك من الأطعمة المعمولة من تراب بسيط يابس، ومن قطع خشب جافة جامدة، وإخراج ألطف تلك الأطعمة من بين فرث ودم، وإخراج كميات هائلة من الأطعمة، من بذرة واحدة صلدة كالعظم، وهى لا تزن درهما.. فإخراج كل ذلك فى وقته المناسب، وأمام أنظارنا، إخراجاً مقنناً، دون نسيان أحد، أو التباس أو خطأ، ليدل دلالة قاطعة، على أن حقيقة الرزق، من لدن رزاق كريم.

---

(١) ص ١٦١، ٢٠١، ٢٠٦ من الملاحق (ملحق قسطمونى).

(٢) ص ٢١٨ : ٢٢٢ من الشعاعات (الشعاع السابع).

- نعم إن الآية الكريمة: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ (الذاريات: ٨٥).
تخصص الإعاشة والإنفاق وتحصرها في الحق ﷻ.

- وكذا الآية الكريمة: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ (هود: ٦).
تأخذ أرزاق الناس والحيوان جميعها، تحت تعهد الرب سبحانه وكفالته.

- وكذا الآية الكريمة: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ (العنكبوت: ٦٠).

تثبت وتعلن بأن الله سبحانه هو الذى يتكفل -كما هو مشاهد- بأرزاق المساكين والضعفاء والعاجزين، وأمثالهم ممن لا يستطيعون أن يتداركوها، فيرسلها إليهم من حيث لم يحتسبوا، ومن مصادر لا تخطر لهم على بال، بل من الغيب، كأمثال الحشرات الموجودة فى أعماق البحار، التى تتغذى على غير شىء، وجميع الصغار التى يأتيها رزقها من حيث لا تحتسب، وجميع الحيوانات التى قد تكفل سبحانه بأرزاقها.. حتى أنه هو الذى يرسل أرزاق أولئك المفتونين بالأسباب، تحت ستار الأسباب، فلا يرزقهم سواه.

وهكذا فالرزق ذو أهمية عظيمة، كأهمية الحياة، فى نظر القدرة الإلهية[1].. إن القدرة هى التى تخرج وتوجد الرزق، والقدر يلبسه اللباس المعين، والعناية الإلهية ترعاه.. فالذى وهب الحياة، يهب الرزق متناسبا مع انبساط الحياة، وليس هناك موت من الجوع.

لماذا إذن الخوف من الجوع وفقدان الرزق؟

رغم أن الآيات القرآنية تثبت أن الرزق بيد القدير الجليل وحده، ويخرج من خزينة رحمته دون وساطة.. إلا أن هناك الكثيرون الذين يخافون من الموت جوعا، أو من فقدان الرزق.

---

(١) ص ٣٣٥ من صيقل الإسلام (السنوحات).

ويبرر الإمام النورسى هذا الخوف بقوله[1]: إن الرزق قسمان:

القسم الأول: وهو الرزق الحقيقى الذى تتوقف عليه حياة المرء، وهو تحت التعهد الربانى، وتكفله بنفسه. فلا أحد يموت من عدم الرزق، لأن الرزق الذى يرسله الحكيم ذو الجلال، إلى جسم الكائن الحى، يدخر قسما منه احتياطاً، على هيئة شحوم ودهون داخلية. بل يدخر قسم من الرزق المرسل فى زوايا حجيرات الجسم، كى يصرف منه فى واجبات الجسم، عند عدم مجىء الرزق من الخارج.. فالذين يموتون إذن، إنما يموتون قبل نفاد هذا الرزق الاحتياطى المدخر. أى أن ذلك الموت لا ينجم من عدم وجود الرزق، وإنما من مرض ناشئ من ترك عادة سيئة من سوء الاختيار، إذ "ترك العادات من المهلكات" قاعدة مطردة.

القسم الثانى: وهو الرزق المجازى: فالذى يسىء استعماله، لا يستطيع أن يتخلى عن الحاجات غير الضرورية، التى غدت ضرورية عنده، نتيجة الابتلاء ببلاء التقليد. وثمن الحصول على هذا الرزق باهظ جداً، ولاسيما فى هذا الزمان، حيث لا يدخل ضمن التعهد الربانى، إذ قد يتقاضى ذلك المال لقاء تضحيته بعزته سلفا، راضياً بالذل، بل قد يصل به حد السقوط فى هاوية الاستجداء المعنوى، والتنازل إلى تقبيل أقدام أناس منحطين وضيعين. لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحوق، بالتضحية بمقدساته الدينية، التى هى نور حياته الخالدة.

إنه ينبغى فى هذا الزمان العجيب، للتحرر من الخوف من الجوع: الاقتصار على الحاجات الضرورية، ومراعاة قاعدة "الضرورة تقدر بقدرها" فليس للمضطر أن يأكل من الميتة إلى حد الشبع، بل له أن يأكل بمقدار ما يحول بينه وبين الموت.. ثم عليه التوكل على الله، فيرزقه من حيث لا

---

(١) ص ٩٨ ، ٩٩ من اللمعات (اللمعة الثانية عشرة).
ص ٢١٦ من اللمعات (اللمعة التاسعة عشرة).

يحتسب.

تناسب الرزق تناسباً عكسيا مع الاقتدار والاختيار:

إن من يتأمل قدرة الله فى الكون وحكمته، ليتحرر من الخوف من الجوع أو فوات الرزق نهائياً. لأن توكله على الرزاق الكريم، كفيل بتحقيق الأمن له. نعم، إن تسارع أرزاق الأشجار إليها، دون أن يكون لها اقتدار ولا اختيار ولا إرادة، وهى ساكنة فى أماكنها متوكلة على الله.. وكذلك سيلان الحليب المصفى من تلك المضخات العجيبة، إلى أفواه الصغار العاجزين، وانقطاع تلك النفقة مباشرة عنهم بعد اكتسابهم جزءاً من الاقتدار، وشيئاً من الاختيار والإرادة.. ومعيشة حيوانات لا اقتدار لها، أفضل من حيوانات كاملة القدرة، كل ذلك ليثبت بداهة أن الرزق الحلال، لا يأتى متناسباً مع القدرة والإرادة، وإنما يأتى متناسباً مع الضعف والعجز، اللذين يمنحان التوكل. ومع ذلك لا يعدو الرزق نحو الإنسان المتوكل ولا يساق إليه، بل يسكن قائلاً: تعال اطلبنى، فتش عنى وخذنى، بالسعى الحلال والاقتصاد والقناعة.

كيف يكون السعي لطلب الرزق مدار السعادة واللذة بدل الخوف والقلق[1]؟

كما أن الخالق القدير الحكيم، قد خلق الحياة خلاصة جامعة، مستخلصة من الكائنات، يحشد فيها مقاصده العامة، وتجليات أسمائه الحسنى. كذلك جعل الرزق فى عالم الحياة، مركزاً جامعاً للشئون الربانية، خالقاً فى ذوى الحياة غريزة الاشتهاء، وتذوق الرزق، ليفسح بذلك المجال، لأهم غاية لخلق الكائنات وحكمتها، وهى جعل المقابل فى شكر ورضى دائمين وكليين، يتمان بكل خضوع وعبودية، تجاه ربوبيته وتودده سبحانه.

فمثلاً: أنه سبحانه قد عمر كل طرف من أطراف المملكة الربانية الواسعة جداً، فعمر السماوات بالملائكة والروحانيين، وعمر عالم الغيب

---

(١) ص ٢٢١ من الشعاعات (الشعاع السابع).

بالأرواح، كما عمر العالم المادى -لحكمة بث الروح وإضفاء البهجة فيه- بوجود الأحياء، وبخاصة الطيور والطويرات والحشرات. فغرز الاحتياج للرزق وتذوقه فى الحيوانات والإنسان، وجعلهم يسعون دوما وراء رزقهم. وكأن ذلك الاحتياج سوط تشويق لهم، يسوقهم ويحركهم ويجريهم وراء الرزق، منتشلاً إياهم من الكسل والعطالة، وما ذلك إلا حكمة من حكم الشئون الربانية. ولولا أمثال هذه الحكمة من الحكم المهمة، لكان سبحانه يجعل التعيينات المقننة للحيوانات، تسعى إليها دون كد وعناء، كما جعل أرزاق النباتات تسعى إليها.

وهكذا فإن السعيد هو من يعلم أن السعى الحلال لطلب الرزق، والاقتصار على الحاجات الضرورية، هو نوع من العبادة، وهو دعاء فعلى لكسب الرزق.. لذا يقضى هذا السعيد حياته بهناء، ويقبل ذلك الإحسان شاكراً ممتناً، متحررا من كل دواعى خوف النفس، من الجوع أو فوات الرزق.

المشكلة النفسية السادسة

الوسوسة التى تزلزل نفسية الإنسان

تعريف الوسوسة: إن الوسوسة فى أبسط تعريف لها هى[١]: تلك الخواطر السيئة الفاسدة، التى يلقيها الشيطان فى القلب والخيال، مما تسبب توتر الأعصاب والأوهام. وقد يؤدى ذلك إلى اليأس والسقوط فى الغفلة، إن لم يعرف الإنسان حقيقتها، ولم يسبر أغوارها. فهى أشبه بالمصيبة تبدأ صغيرة، ثم تكبر شيئا فشيئا، على قدر اهتمام المرء بها. أما إذا أهملها فإنها

---

(١) ص ١٠٢ من الملاحق (ملحق قسطمونى) ، ص ١٨٩ من المثنوى (حباب).

تزول وتفنى.

ويرى الإمام النورسي: أنه لا ضرر من الخواطر النجسة والقبيحة والكفرية، التى ترد دون رضى من الإنسان: فكما أن صورة النجاسة فى المرآة ليست نجسة، وصورة الحية لا تلدغ، وصورة النار لا تحرق.. كذلك لا ضرر من تلك الوساوس، التى تتمثل فى مرايا القلب والخيال، مثلما تقرر فى علم الأصول: أن تصور الكفر ليس كفراً، وتخيل الشتم ليس شتماً. أما تلك الآلام والأوجاع الروحية، الناتجة عن الوسوسة: فهى أسواط ربانية تحث على المجاهدة والصبر. إذ تقتضى الحكمة الإلهية عدم الوقوع فى اليأس، وكذلك دون البقاء فى الاطمئنان والأمان، وذلك بالموازنة بين الخوف والرجاء، مع التجمل بالصبر والتحلى بالشكر، والاستعانة بقول الحق ﷻ: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ۞ وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ (المؤمنون: ٩٧-٩٨).

بعض أوجه الوسوسة وكيفية علاجها(١):

يبين الإمام النورسى خمسة وجوه للوسوسة، من وجوهها التى تحدث كثيراً، حتى يكون بيانها -بعون الله- شفاء لما فى الصدور.. ذلك لأن الجهل مجلبة للوساوس، بينما العلم بها دافع لشرها. فلو جهل الإنسان أوجه الوسوسة، أقبلت ودنت، وإذا ما عرفها، ولت وأدبرت.

الوجه الأول: الجرح الأول:

إن الشيطان يلقى بشبهته فى القلب، ثم يراقب صداها فى الأعماق، فإذا أنكرها القلب، انقلب من الشبهة إلى الشتم والسب، فيصور أمام الخيال ما يشبه الشتم، من قبيح الخواطر السيئة، والهواجس المنافية للآداب.. فيظن الموسوس أن قلبه آثم، وأنه قد اقترف السيئات حيال ربه الكريم، ويشعر باضطراب وانفعال وقلق، فينفلت من عقال السكينة والطمأنينة، ويحاول

---

(١) ص ٣٠٣ : ٣٠٩ من الكلمات (المقام الثانى من الكلمة الحادية والعشرين).

الانغماس فى أغوار الغفلة.

أما ضماد هذا الجرح فهو: أيها المبتلى المسكين! لا تخف ولا تضطرب! لأن ما مر أمام مرآة ذهنك، إنما هى مجرد صور وخيالات. وحيث أن تخيل الكفر ليس كفراً، فإن تخيل الشتم أيضاً ليس شتماً. فتلك الكلمات غير اللائقة، لم تكن قد صدرت من ذات قلبك، ولعلها آتية من لمة شيطانية، قريبة من القلب. لذا فإن ضرر الوسوسة إنما هى فى توهم الضرر، حيث يظن المرء أن همزات الشياطين، هى من خواطر قلبه هو، ويتصور أضرارها فيقع فيها. وهذا هو ما يريده الشيطان منه بالذات.. والمطلوب هنا أن يتحصن بالآية الكريمة: **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ (فصلت:٣٦)**.

الوجه الثانى:

عندما تنطلق المعانى من القلب، تنفذ فى الخيال مجردة من الصور، والخيال هو الذى يكسيها الأشكال والصور هناك.. فإن كانت المعانى منزهة نقية، والصور والأنسجة ملوثة دنيئة، فلا إلباس ولا إكساء، إنما مجرد مس فقط.. ومن هنا يلتبس على الموسوس أمر التماس، فيظنه تلبساً وتلبيساً، ويقول فى نفسه: "يا ويلتاه! لقد تردى قلبى فى المهاوى، وستجعلنى هذه الدناءة والخساسة النفسية، من المطرودين من رحمة الله" فيستغل الشيطان هذا الوتر الحساس منه استغلالاً فظيعاً.

ومرهم هذا الجرح العميق هو: كما لا يؤثر فى صلاتك ولا يفسدها، ما فى جوفك من نجاسة، بل يكفى لها طهارة حسية وبدنية. كذلك لا تضر مجاورة الصور الملوثة، للمعانى المنزهة والمقدسة.

مثال ذلك: قد تكون متدبراً فى آية من آيات الله، وإذا بأمر مهيج من مرض يفاجئك، أو تدافع الأخبثين.. فلاشك أن خيالك سينساق إلى حيث الدواء، أو قضاء الحاجة، ناسجا ما يقتضيه من صور دنيئة.. فتمر المعانى

السامية الواردة فى تدبرك، من بين الصور الخيالية السافلة. دعها تمر، فليس ثمة ضرر ولا خطورة. إنما الخطورة فقط هى فى تركيز الفكر فيها، وتوهم الضرر منها.

واعتبر دائما بقول الحق جل شأنه: ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ **(النساء: ٧٦)**.

الوجه الثالث:

قد تتوارد خيالات سيئة أحياناً، عند النظر فى أمور مقدسة. إذ التناقض الذى يكون سببا للابتعاد فى الخارج، يكون مدعاة للقرب والتجاور فى الصور والخيال، كما هو معلوم فى علم البيان. أى أن ما يجمع بين صورتى الشيئين المتناقضين، ليس إلا الخيال.. ويطلق على هذه الخواطر الناتجة بهذه الوسيلة تداعى الأفكار.

مثال ذلك: بينما أنت تناجى ربك فى الصلاة، بخشوع وتضرع وحضور قلب، مستقبلا الكعبة المعظمة، إذا بتداعى الأفكار هذا، يسوقك إلى أمور مشينة مخجلة، لا تعنيك بشىء.. فإذا كنت يا أخى مبتلى بتداعى الأفكار، فإياك إياك أن تقلق أو تجزع، بل مر عليها مر الكرام، لئلا تقوى تلك العلاقات الواهية العابرة، بتركيزك عليها، وتتأصل تدريجيا، حتى تتحول إلى مرض خيالى.. بل عد إلى حالتك الفطرية حالما تتنبه لها.

أما علاج هذا الداء فهو: اعلم أنه لا مسئولية فى تداعى الأفكار، لأنها لا إرادية غالباً. وهى ليست بمرض قلبى، إنما هى هواجس نفسية، وخواطر خيالية، لدى مرهفى الحس والأمزجة الحادة، ولكن خطورتها أن الشيطان يتغلغل عميقا مع هذه الوساوس. فعليك الاستعاذة بالله، عند ورود تلك الخواطر والهواجس عليك، كما أمرتنا الآية الكريمة[1].. واعلم كذلك: كما أن مجاورة ملائكة الإلهام للشيطان حول القلب لا بأس فيها، ومجاورة الأبرار

(١) (فصلت: ٣٦) والتى ذكرناها فى علاج الوجه الأول.

للفجار وقرابتهم، ووجودهم في مسكن واحد، لا ضرر فيه، كذلك إذا تداخلت خواطر سيئة غير مقصودة، أو انشغلت بها نفس الإنسان كثيراً، حيث ينتهز الشيطان هذه الفرصة، ويقدم الأخيلة الخبيثة، وينثرها هنا وهناك، مما يعود بأبلغ الضرر على الإنسان.

الوجه الرابع:

هو نوع من الوسوسة الناشئة من التشدد المفرط، لدى التحري عن الأكمل الأتم من الأعمال. فكلما زاد المرء في التشدد هذا -باسم التقوى والورع- ازداد الأمر سوءاً وتعقيداً، حتى ليوشك أن يقع في الحرام، في الوقت الذي يبتغي الوجه الأول والأكمل، في الأعمال الصالحة. وقد يترك "واجبا" بسبب من تحريه عن "سنة" حيث يسأل نفسه دائما، عن مدى صحة عمله وقبوله، حتى يطول به الأمر فييأس.. ويستغل الشيطان وضعه هذا، فيرميه بسهامه ويجرحه من الأعماق.

ولهذا الجرح دواءان اثنان:

الدواء الأول: عليك يا أخي الأخذ بمذهب أهل السنة والجماعة، ولا تتبع المذاهب الأخرى مثل المعتزلة. فعملك يكون صحيحا لا غبار عليه، نظراً لموافقته ظاهر الشرع. وإياك أن توسوس في صحة عملك، ولكن إياك أن تغتر به أيضا، لأنك لا تعلم علم اليقين، أهو مقبول عند الله أم لا؟

الدواء الثاني: اعلم أن الإسلام دين الله الحق، دين يسر لا حرج فيه، وأن المذاهب الأربعة كلها على الحق. فإن أدرك المرء تقصيره، تلافاه بالاستغفار، الذي هو أثقل ميزاناً من الغرور، الناشئ من إعجابه بالأعمال الصالحة. واطرح الوساوس واصرخ في وجه الشيطان: إن هذا الحال حرج، بل ينافي اليسر في الدين، ويخالف قاعدتي: "لا حرج في الدين" و "الدين يسر"، ولابد أن عملي هذا يوافق مذهباً من المذاهب الإسلامية الحقة، وهذا يكفيني.

الوجه الخامس:

وهو الوساوس التى تتقمص أشكال الشبهات فى قضايا الإيمان:

- فكثيراً ما يلتبس على الموسوس خلجات الخيال، فيظن أنها من بنات عقله. أى يتوهم أن الشبهات التى تنتاب خياله، كأنها مقبولة لدى عقله، فيظن أن اعتقاده قد مسه الخلل.
- وقد يظن الموسوس أن الشبهة التى يتوهمها، إنما هى شك يضر بإيمانه.
- وقد يظن أن ما يتصوره من رؤى الشبهات، كأن عقله قد صدقه.
- وربما يحسب أن كل تفكير فى قضايا الكفر كفراً، أى أنه يحسب أن كل تحرٍ وتمحيص، وكل متابعة فكرية، ومحاكمة عقلية محايدة، لمعرفة أسباب الضلالة، أنه خلاف الإيمان.

فأمام هذه التلقينات الشيطانية الماكرة، يرتعش ويرتجف، ويقول: "ويلاه! لقد ضاع قلبى وفسد اعتقادى واختل". وبما أنه لا يستطيع أن يصلح تلك الأحوال، بإرادته الجزئية –وهى غير إرادية على الأغلب– فإنه يتردى إلى هاوية اليأس القاتل.

أما علاج هذا الجرح فهو:

إن توهم الكفر ليس كفراً، كما أن تخيل الكفر ليس كفراً.. وأن تصور الضلالة ليس ضلالة، مثلما أن التفكير فى الضلالة ليس ضلالة.. ذلك لأن التخيل والتوهم، والتصور والتفكر، أمور حرة طليقة إلى حد ما، لذلك فهى لا تحفل بالجزء الاختيارى، المنبثق من إرادة الإنسان، ولا ترضخ كثيراً تحت التبعات الدينية.. بينما التصديق العقلى والإذعان القلبى، ليسا كذلك، فهما خاضعان لميزان.

ولكن إذا تكررت هذه الحالة –دون مبرر– وبلغت حالة من الاستقرار فى النفس، فقد يتمخض عنها لون من الشبهات الحقيقية، ثم قد ينزلق

الموسوس، بالتزامه الطرف المخالف، باسم المحاكمات العقلية الحيادية، أو باسم الإنصاف، إلى حالة يلتزم المخالف (أى الخصم أو الشيطان) دون اختيار منه، وعندها يتنصل من الالتزامات الواجبة عليه تجاه الحق.. فيهلك. ولكى ينجو الإنسان من تلك المهاوى الخطرة، عليه الالتجاء دوما إلى تلك القلعة المتينة، والحصن الحصين. المتمثلة فى تلك السورة القرآنية: ﴿قل أعوذ برب الناس ۞ ملك الناس ۞ إله الناس ۞ من شر الوسواس الخناس ۞ الذى يوسوس فى صدور الناس ۞ من الجنة والناس﴾.

وفى نهاية عرض أوجه الوسوسة وكيفية علاجها.. قد يثور سؤال لدى بعض الناس: تُرى ما الحكمة من ابتلاء المؤمنين بهذه الوساوس، المزعجة للنفس والمؤلمة للقلب؟

أو بعبارة أخرى: إن خلق الشياطين وهم الشر المحض، وتسليطهم على أهل الإيمان، وسوقهم كثيراً من الناس إلى الكفر، ودخولهم النار بمكايدهم.. هو أمر مرعب. فيا ترى كيف ترضى رحمة الله بهذه المصيبة العظمى؟

والإجابة على هذا التساؤل نجدها فى النقطة التالية:

ما الحكمة فى خلق الشياطين الذين هم منبع الشرور[1]؟

إنه إزاء الشرور الجزئية للشياطين، يكمن فى وجودهم كثير من المقاصد الخيرة الكلية، وكمالات ترقى بالإنسان فى سلم الكمال.

فإننا إذا مانحينا الإفراط والغلبة جانباً، فإن الوسوسة تكون حافزه للتيقظ، وداعية للتحرى، ووسيلة للجدية، وطاردة لعدم المبالاة، ودافعة للتهاون.. ولأجل هذا كله جعل العليم الحكيم الوسوسة، نوعاً من سوط تشويق، وأعطاه بيد الشيطان، كى يحث به الإنسان فى دار الامتحان، وميدان السباق، إلى تلك

(١) ص ١١٠، ١١١ من اللمعات (اللمعة الثالثة عشرة).
ص ٣٠٩ من الكلمات.

الحكم.. وإذا ما أفرط في الأذى، فررنا إلى العليم الحكيم وحده، مستصرخين: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

نعم! كما أن هناك مراتب كثيرة، بدءاً من البذرة إلى الشجرة الباسقة، كذلك فإن للاستعدادات الفطرية الكامنة في ماهية الإنسان، من المراتب والدرجات ما تفوق ذلك، بل قد تصل إلى المراتب الموجودة بين الذرة والشمس. ولكي تظهر هذه الاستعدادات وتنبسط، لابد لها من حركة، ولابد لها من تفاعل، متمثل في "المجاهدة" لتحقيق الرقي والسمو.. ولا تحصل هذه المجاهدة، إلا بوجود الشياطين والأشياء المضرة، حتى تظهر تلك الأصناف السامية من الناس، التي هي بحكم الآلاف من النوع الإنساني. فالتقويم يأخذ "النوعية" بنظر الاعتبار، ولا ينظر إلى الكمية إلا قليلاً. بل قد لا ينظر إليها.

فالمنافع التي حازتها البشرية من عشرة أشخاص كاملين، يتلألأون كالنجوم في سمائها، والذين أخذوا بيد الإنسانية إلى مراقي الفلاح، وأضاءوا السبل أمامهم، وأخرجوهم إلى النور، بمجاهدتهم للنفس والشيطان.. لتبين بوضوح حكمة العدالة الإلهية، بوجود الشياطين وتسلطها. وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ (العنكبوت: ٢)، ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ (آل عمران: ١٤٢).**

المشكلة النفسية السابعة

الحسد الذي يسبب العناد والشقاق

ما هو الحسد؟

إن الحسد داء نفسي رهيب، لا ينجو منه إلا من رحم ربي، وهو ذا أثر خطير على نفسية الإنسان أولا، ثم على حياة البشر الشخصية والاجتماعية

والمعنوية، بل هو سم زعاف لحياة البشرية قاطبة.

ويعرفه الإمام النورسي بقوله[١]:

إنه مشاعر الحقد والغل والعداء، التي توغر قلب الإنسان، تجاه أخيه الإنسان، وما يتبع ذلك من تحايز وعناد وشقاق، في أوساط المجتمعات.. وهو مرفوض كلية: حيث ترفضه الحقيقة والحكمة، ويرفضه الإسلام، الذى يمثل روح الإنسانية الكبرى.

فالذين يملأ قلوبهم الحقد والعداوة، تجاه إخوانهم المؤمنين، إنما يظلمون أنفسهم، قبل ظلمهم لإخوانهم، فضلاً عن تجاوزهم حدود الرحمة الإلهية. حيث أنه بالحقد والعداوة، يوقع نفسه فى عذاب أليم، فيقاسى عذابا، كلما رأى نعمة حلت بخصمه، ويعانى ألماً من خوفه.. والحسد أشد إيلاما للحاسد من المحسود حيث يحرق صاحبه بلهيبه، أما المحسود فلا يمسه من الحسد شيء، أو يتضرر طفيفاً.

أضرار الحسد على المجتمعات الإسلامية:

إن الحسد يؤدى إلى التفرق والتحزب فى الأمة الإسلامية، حيث يحاول الحاسد دائما، هدم مسالك الآخرين، أو الطعن فى وجهة نظرهم، وإبطال مسلكهم. لا لسبب إلا أغراض شخصية، ولهوى النفس الأمارة بالسوء، التى تريد التسلط والاستعلاء، وإشباع شهوات نفس فرعونية[٢].

ورغم أن أشد القبائل تأخرا يدركون معنى الخطر الداهم عليهم، فينبذون الخلافات الداخلية، وينسون العداوات الجانبية، عند إغارة العدو الخارجى عليهم، تقديراً لمصلحتهم الاجتماعية.. إلا أن الذين يتولون خدمة الإسلام ويدعون إليه، لا ينسون عداوتهم الجزئية الطفيفة، فيمهدون بها سبيل إغارة

---

(١) ص ٣٣٩ : ٣٤٥ من المكتوبات (المكتوب الثانى والعشرون).

(٢) ص ٣٤٧ من المكتوبات.

الأعداء الذين لا يحصرهم العد عليهم[1].

وهذا ما أدى بتلاميذ الإمام النورسي إلى توجيه ذلك السؤال له[2]:

لماذا يختلف أصحاب الدين والعلماء، وأرباب الطرق الصوفية، وهم أهل حق ووفاق ووئام، بالتنافس والتزاحم.. في حين يتفق أهل الدنيا والغفلة، بل أهل الضلالة والنفاق، من دون مزاحمة، ولا حسد فيما بينهم.

وقد أجاب النورسي -رحمه الله- على ذلك السؤال إجابة شافية، تبين كيف أن التحاسد يضيع على الأمة الإسلامية كثيراً من ثمرات العمل الإيجابي، الذي يبذله أفرادها.. نقتبس من تلك الإجابة ما يلي:

- إن اختلاف أهل الحق، غير نابع من فقدان الحقيقة.. كما أن اتفاق أهل الغفلة، ليس نابعا من ركونهم إلى الحقيقة. بل لأن وظائف أهل الدنيا والسياسة والمثقفين، وأمثالهم من طبقات المجتمع، قد تعينت وتميزت: فلكل طائفة وجماعة وجمعية، مهمة خاصة تنشغل بها، وما ينالونه من أجرة مادية -لقاء خدماتهم ولإدامة معيشتهم- هي كذلك متميزة ومتعينة. كما أن ما يكسبونه من أجرة معنوية، كحب الجاه وذيوع الصيت والشهرة، هي الأخرى متعينة ومخصصة ومتميزة.. فليس هناك إذن ما يولد منافسة أو مزاحمة، أو حسداً فيما بينهم. وليس هناك ما يوجب المناقشة والجدال. لذا فهم يتمكنون من الاتفاق، مهما سلكوا من طرق الفساد.

أما أهل الدين، وأصحاب العلم، وأرباب الطرق الصوفية: فإن وظيفة كل منهم متوجهة إلى الجميع، وأن أجرتهم العاجلة غير متعينة، وغير متخصصة، كما أن حظهم من المقام الاجتماعي، وتوجه الناس إليهم، والرضى عنهم، لم يتخصص أيضا.. فهناك مرشحون كثيرون لمقام

(١) ص ٣٤٩ من المكتوبات (المكتوب الثاني والعشرون).

(٢) ص ٢٢٦ من اللمعات (اللمعة العشرون).

واحد. وقد تمتد أيد كثيرة جداً إلى أية أجرة -مادية كانت أو معنوية- ومن هنا تنشأ المزاحمة والمنافسة والحسد والغيرة.. فيتبدل الوفاق نفاقاً، والاتفاق اختلافاً وتفرقاً.

ولا يشفي هذا المرض العضال، إلا مرهم الإخلاص الناجح، أى أن ينال المرء شرف امتثال الآية الكريمة: ﴿إن أجرى إلا على الله﴾ (يونس:٧٢)، بإيثار الحق والهدى، على اتباع النفس والهوى، وبترجيح الحق على أثرة النفس.. فمن وفقه الله إلى ذلك يجد لذة الإخلاص.

وإذا ما كان ثمة غرور وأنانية فى النفس، بحيث يتوهم المرء نفسه محقاً، ومخالفيه على باطل، بحيث يقع الاختلاف والمنافسة، بدل الاتفاق والمحبة. فعليه اتخاذ دستور الإنصاف دليلاً ومرشداً، بحيث يقول: "إن مسلكى حق وهو أفضل" ولكن لا يجوز له أن يقول: "الحق هو مسلكى فحسب".

- إن اتفاق أهل الضلالة نابع من ذلتهم، واحتياجهم إلى اكتساب القوة، ومعاونة الآخرين، والاتفاق معهم.. بينما أهل الحق، لا يرون وجه الحاجة إلى معاونة الآخرين، لما يحملون فى قلوبهم من إيمان قوى، يمدهم بسند عظيم، ويبعث فيهم التوكل والتسليم.. إنما اختلافهم وما يتبعه من غيرة وحسد، ناتج من المبالغة فى الحرص على ثواب الآخرة، وطلب الاستزادة منها دون قناعة، وحصرها على النفس.

ويرد عليهم الإمام النورسى قائلاً[1]: اعلموا أنه ما ينبغي أن يكون حسد ولا منافسة ولا غيرة فى أمور الدين والآخرة.. ذلك لأن منشأ الحسد والمنافسة إنما هو من تطاول الأيدى الكثيرة على شىء واحد، وحصر الأنظار إلى مقام واحد، وشهية المعدات الكثيرة إلى طعام واحد. فتؤول المنافسة والمسابقة والمزاحمة إلى الغبطة والحسد.. ولما كانت الدنيا

---

[1] ص ٢٣٧ من اللمعات (اللمعة العشرون).

ضيقة ومؤقتة، ولا تشبع رغبات الإنسان ومطالبه الكثيرة، وحيث أن هناك الكثيرون يتهالكون على شيء واحد، فالنتيجة إذن السقوط في هاوية الحسد والمنافسة.. أما في الآخرة الفسيحة: فلكل مؤمن جنة عرضها السماوات والأرض، تمتد إلى خمسمائة سنة، ولكل منهم سبعون ألفا من الحور والقصور، فلا موجب إذن هناك للحسد والمنافسة قط.. ويدلنا هذا على أنه لا حسد ولا مشاحنة في أعمال صالحة، تفضي إلى الآخرة. فمن تحاسد فهو لاشك مرائي، أي يتحرى مغانم دنيوية تحت ستار الدين، ويبحث عن منافع باسم العمل الصالح. أو أنه جاهل صادق لا يعلم أين وجهة الأعمال الصالحة، ولم يدرك بعد أن الإخلاص روح الأعمال الصالحة وأساسها، فيتهم سعة الرحمة الإلهية كأنها لا تسعه، ويبدأ بالحسد والمنافسة والمزاحمة، منطويا في قرارة نفسه على نوع من العداء، مع أولياء الله الصالحين الصادقين. فيضيع على نفسه، وعلى كثير من المسلمين، فرصة الاستفادة من توجيهاتهم المثمرة البناءة التي تعالج انحراف الإنسان والمجتمعات.

وبذلك فإن الحسد في أمور الدين والآخرة، يجب ألا يصدر من مسلم لأخيه المسلم، لأن رحمة الله واسعة.. بل ذلك النوع من الحسد، يجب أن ينحصر في قلوب الكفار فقط، كما أخبرنا بذلك العليم الخبير: ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق**﴾ **(البقرة:١٠٩)**، وهذا هو أشد أنواع الحسد، لأنه يهدد كيان الأمة الإسلامية بأسرها، لأنه يعرضها لحقد وانتقام أهل الضلالة والإلحاد.

كيف عالج القرآن الحسد ودواعيه؟

يذكر لنا الإمام النورسي بعض الحلول، المستقاة من روح القرآن الكريم،

لعلاج الحسد. فيقول رحمه الله[1]:

- يجب أن يلاحظ الحاسد عاقبة ما يحسده، ويتأمل فيها، ليدرك أن ما ناله محسوده من أعراض دنيوية -من مال وقوة ومنصب- إنما هو أعراض زائلة فانية. فائدتها قليلة، ومشقتها عظيمة.. فقد تدخل تحت قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ (التوبة: ٥٥)، أو قوله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ (طه: ١٣١).
- يعلم القرآن النفس أن الحاسد في حسده يسخط على قدر الله، لأنه يحزن من مجيء فضل من الله ورحمته على محسوده، ويؤنب المولى ﷻ هؤلاء الحاسدين بقوله: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ (النساء: ٥٤).
- إن الحاسد الذى يحزن من فضل جاء لمحسوده، ويرتاح من نزول المصائب عليه.. فإنه بذلك كأنه ينتقد القدر الإلهي، ويعترض على رحمته الواسعة. ومعلوم أن من ينتقد القدر كمن يناطح الجبل، ومن يعترض على الرحمة الإلهية يُحْرَمُ منها. ولينصت الحاسد لقول الحق تبارك اسمه: ﴿أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ (الزخرف: ٣٢).
- على الحاسد أن يجاهد وسوسة الشيطان التي تدعوه إلى الغيرة والحقد والحسد، وكذلك نزغات نفسه الأمارة بالسوء، حتى يتخلص من شرور العداء المغروز فيه، ويستأصل شأفته.. فإن الإيمان بعقيدة واحدة، يستدعي حتما توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد، مما يؤدي إلى

(١) ص ٣٤٤ : ٣٥٠ من المكتوبات (المكتوب الثاني والعشرون).

وحدة المجتمع[1]. تحقيقاً لقول الحق ﷻ: ﴿إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ (الحجرات:١٠).

* يحرص القرآن حرصاً شديداً على تطهير النفس من الحسد، بغرس أسمى معاني الحب والإخلاص والإيثار، بين المؤمنين كافة.. فإذا ما تذوق المؤمن حلاوة الإخلاص، تحرر من نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء، ويصبح المؤمنون كالجسد الواحد: فكما لا تحاسد في جسم الإنسان بين اليدين، ولا انتقاد بين العينين، ولا يعترض اللسان على الأذن، ولا يرى القلب عيب الروح، بل يكمل كل منه نقص الآخر، ويستر تقصيره، ويسعى لحاجته، ويعاونه في خدمته.. وإلا انطفأت حياة ذلك الجسد، ولغادرته الروح وتمزق الجسم. وكما لا حسد بين تروس المعمل ودواليبه، ولا يتقدم بعضها على بعض ولا يتحكم، ولا يدفع أحدها الآخر إلى التعطل بالنقد والتجريح، وتتبع العورات والنقائص، ولا يثبط شوقه إلى السعي، بل يعاون كل منها الآخر، بكل ما لديه من طاقة موجها حركات التروس والدواليب إلى غايتها المرجوة، فيسير الجميع إلى ما وجدوا لأجله، بالتساند التام والاتفاق الكامل. فلو تدخل شيء غريب أو تحكم في الأمر -ولو بمقدار ذرة- لاختل المعمل وأصابه العطب، ويقوم صاحبه بدوره بتشتيت أجزائه، وتقويضه من الأساس.

فكذلك يريد الإسلام من المؤمنين: أن يكونوا جميعا أجزاء وأعضاء، في شخصية معنوية جديرة بأن يطلق عليها: الإنسان الكامل.. وأن يكونوا جميعا بمثابة تروس ودواليب معمل، ينسج السعادة الأبدية في حياة خالدة[2].. ولذلك قال الحق ﷻ: ﴿فألف بين قلوبكم وأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ (آل عمران:١٠٣).

---

(١) ص ٣٤١ من المكتوبات (المكتوب الثاني والعشرون).

(٢) ص ٢٤٢ من اللمعات (اللمعة الحادية والعشرون).

ومن صفات هؤلاء الإخوان: ﴿يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (الحشر:٩).

فلا حسد ولا حقد ولا تباغض.. بل حب وإيثار وتضحية، فى أسمى الصور والمعانى.

• إن حرص القرآن على تطهير النفس من الحسد، ناتج من حرصه على تحقيق الاتحاد والتساند التام فى المجتمع الإسلامى، وفوزه بسر "الإخلاص" الذى يهيئ قوة معنوية، بمقدار ألف ومائة وأحد عشر "١١١١" ناتجة من تساند أربعة أفراد. ذلك أن كل فرد من الأفراد المتفقين حقيقة، يمكنه أن يرى بعيون سائر إخوانه، ويسمع بآذانهم، ويفكر بعقولهم، ويعمل بأيديهم.. والله من وراء القصد، ومع الجماعة التى تطهرت قلوبها من الأثرة والأنانية، والغل والحسد، وخشعت لله الحى القيوم.

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (النحل:١٢٨).

• كل ما ذكرناه سابقاً كان عن علاج القرآن للحاسد، لأن داءه وبيل، وما فى صدره من حقد وغل وعداء، يستلزم جهداً كبيراً، وأمداً طويلاً، فى إزاحة ما ران على قلبه من ظلمات، وبعث نور الإيمان بدلاً من نيران العداوة والبغضاء، التى تؤجج الصدور، وتؤدى إلى تفكك المجتمعات وانهيارها.

أما بالنسبة للمحسود:

فعليه الالتجاء إلى الحصن المنيع المتمثل فى سورة الفلق.. تلك الهدية الرحمانية، التى تقى الإنسان من مكائد النفس الشيطانية: ﴿قل أعوذ برب الفلق ۞ من شر ما خلق ۞ ومن شر غاسق إذا وقب ۞ ومن شر النفاثات فى العقد ۞ ومن شر حاسد إذا حسد﴾.

فالاعتصام بالله هو حبل النجاة، من ظلمات الدنيا والآخرة، ومن شر كل

ذى شر، فهو الركن الركين، والملاذ الأمين، والعروة الوثقى، ونقطة الاستناد الكبرى.

وننتقل الآن إلى مشكلة أخرى من مشكلات الإنسان النفسية، التى وضع لها القرآن الحلول الجذرية، ووصف لها الدواء الشافى والعلاج الوافى.

المشكلة النفسية الثامنة

القلق النفسى وآثاره المدمرة

لاشك أن القلق النفسى من أخطر الأمراض، التى تهز كيان الإنسان هزاً وتقلق مضجعه، وتحرمه من الاستمتاع بأى متعة من متع الحياة. ولذلك فقد أولاه القرآن الحكيم أهمية كبرى، حتى يحقق للإنسان الاستقرار النفسى اللازم، لكى يخطو خطواته فى الحياة، بأقدام راسخة وقلوب مطمئنة.

وفى رحاب الآية الكريمة: **﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد: ٢٨).**

قال الإمام النورسى [١]:

إنه لا خلاص للقلوب والأرواح، من قبضة القلق الرهيب، ومن دوامات الاضطراب والخوف، ومن ظمأ الضلالة، وحرقة نار البعد عن الله، إلا بمعرفة خالق واحد أحد.. إذ ما إن يُسلِّم أمر القلوب والأرواح، وأمر كل الموجودات إلى خالق واحد أحد، حتى تجد راحتها، وتحظى بخلاصها من عناء تلك الزلازل النفسية المدمرة، وتسكن من ذلك القلق، وتستقر وتطمئن.

لأنه إن لم يسند أمر الموجودات كافة إلي واحد أحد، فسيحال خلق كل شىء إذن إلى ما لا يحد من الأسباب.. وعندها يكون إيجاد شىء واحد

---

(١) ص ٧٩٣ من الكلمات (الكلمة الثالثة والثلاثون) النافذة الحادية عشرة.

مشكلاً وعويصاً، كخلق الموجودات كلها. ولنوضح ذلك بمثال: فكما أن تفويض إدارة جندي واحد إلى أمراء عديدين، فيه مشاكل عديدة جداً، بينما تفويض إدارة مائة جندي إلى ضابط واحد، فيه سهولة بالغة كإدارة جندي واحد.. كذلك اتفاق ما لا يحد من الأسباب في إيجاد شيء واحد، فيه مئات الأضعاف من الإشكالات.. بينما في إيجاد الواحد الأحد للأشياء العديدة، فيه مئات الأضعاف من السهولة.

وهكذا فيما يستشعره الإنسان من لهفة إلى الحقيقة وتوق إليها، يجعله دائم القلق والاضطراب ما لم يبلغها. فلا يجد الاطمئنان والسكون إلا بتوحيد الخالق، ومعرفة الله سبحانه.. ذلك لأن سلوك سبيل الكفر الذي فيه ما لا يحد من الاضطرابات والمشاكل محال، ولا حقيقة له أصلاً.. بينما التوحيد فيه من السهولة المطلقة، في خلق الموجودات بهذه الكثرة والإبداع، بحيث لا يدع للإنسان مجالا إلا سلوكه.

فيا من يتبع الضلالة.. يا أيها الشقي المسكين! تأمل طريق الضلالة، ما أظلمه وما أشده إيلاماً لوجدان الإنسان.. ثم تأمل في طريق التوحيد، فما أصفاه وما أيسره.. فاسلكه وانج بنفسك من كل عوامل القلق.

كيف يحقق الإيمان الاطمئنان القلبي؟

المؤمن من يعتقد بأنه "لا إله إلا الله". أي لا خالق ولا رازق إلا هو، النفع والضر بيده، وأنه حكيم لا يعمل عبثاً، كما أنه رحيم واسع الرحمة والإحسان[1]. لذا يجد كل شيء بابا ينفتح إلى خزائن الرحمة الإلهية، فيطرقه بالدعاء، ويرى أن كل شيء مسخر لأمر ربه، فيلتجيء إليه بالتضرع، ويتحصن أمام كل مصيبة مستندا إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام، والاطمئنان الكامل.

---

(١) ص ١٣ من الكلمات (الكلمة الثالثة).

فلو أصبحت الكرة الأرضية قنبلة مدمرة وانفجرت، فلربما لا تخيف عابداً لله ذا قلب منور، بل قد ينظر إليها أنها خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، ويتملاها بإعجاب ومتعة.. بينما الفاسق ذو القلب الميت -ولو كان فيلسوفا ممن يعد ذا عقل راجح- إذا رأى فى الفضاء نجما مذنبا، يعتريه الخوف، ويرتعش هلعاً، ويتساءل بقلق: ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا؟ فيتردى فى وادي الأوهام.. ولقد ارتعد الأمريكان يوما، من نجم مذنب ظهر فى السماء، حتى هجر الكثيرون مساكنهم أثناء ساعات الليل.

نعم! رغم أن حاجات الإنسان تمتد إلى ما لانهاية من الأشياء، فرأس ماله فى حكم المعدوم. ورغم أنه معرض إلى ما لا نهاية من المصائب، فإن اقتداره كذلك فى حكم لا شيء.. ومن هنا ينشأ القلق، إذ أن مدى دائرتى رأس ماله واقتداره، بقدر ما تصل إليه يده، بينما دوائر آماله ورغائبه وآلامه وبلاياه، واسعة سعة مد البصر والخيال.. فما أحوج روح البشر العاجزة الضعيفة، إلى حقائق العبادة والتوكل، وإلى التوحيد والاستسلام. فمهما يكن للعبادة من حمل ثقيل ظاهرا، إلا أن لها فى معناها راحة وخفة عظيمتين لا توصفان.

علاج القرآن لجميع حالات قلق الإنسان

إذا تتبعنا الآيات القرآنية، فإننا سنجدها بلسماً شافياً لصدور المؤمنين، من أمراض القلق النفسى. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ (الإسراء: ٨٢).

﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور﴾ (يونس: ٥٧).

﴿أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ (فصلت: ٤٤).

وإذا حاولنا تسجيل الآيات القرآنية، التى تعالج كل حالة قلق، يتعرض لها الإنسان، فإننا سنضطر إلى نقل معظم القرآن على هذه الصفحات.. لذا فإن منهج الإمام النورسى يقوم على تسجيل الروح العام للقرآن الكريم، فى علاج

البشرية من حالات القلق النفسية. ونحن بدورنا سنقوم بتسجيل مقتطفات، مما أفاض الله به على الإمام الراحل، يكون مؤشرا لمن يريد الغوص في بحار الحقيقة:

• قلق الإنسان على مصيره وكيفية دخوله القبر (١):

إن ما يقلق الإنسان دوماً وينغص حياته، هو تفكيره الدائم في مصيره، وكيفية دخوله القبر، مثلما انتهى إليه مصير أحبته وأقاربه.. فتوهم الإنسان المسكين وتصوره من أن آلافاً، بل ملايين، من إخوانه البشر، ينتهون إلى العدم بالموت -ذلك الفراق الأبدى الذى لالقاء وراءه- سيذيقه هذا التصور ألما شديدا، ينبئ بآلام جهنم.. فالإنسان، خلافا للحيوان - ذو علاقة مع بيته، ومرتبط بأقاربه، بروابط ووشائج، وهو كذلك ذو ارتباط وثيق مع الدنيا، لأنه ذو نسب فطرى بالجنس البشرى، لذلك فهو مرتبط فطرة بالخلود والبقاء.. لذلك فإنه يتلوى من ألم العذاب، النابع من التفكير فى العدم، المرتبط بالموت.

وهنا يأتى نور القرآن الكريم فاتحاً بصيرته، مزيلاً الغشاوة عن عينيه، فينظر بنور الإيمان، ويعرف أن "الإيمان بالآخرة" كنز عظيم للإنسان، الوثيق الصلة بالرغبات والآمال التى لا تنتهى.. فإذا به يكتسب لذة روحية عميقة، تنبئ بلذة الجنة، بما يشاهد من نجاة أحبته، وخلاصهم جميعا من الموت النهائى، والفناء والبلى والاندثار، ومن بقائهم خالدين فى عالم النور الأبدى، منتظرين قدومه إليهم.

وهكذا يصبح الإيمان بالله واليوم الآخر، محوراً للسعادة المطلوبة واللذة المبتغاة، ومدار استمداد القوة وسلوى للإنسان، تجاه هموم الدنيا غير المحصورة. فيتحرر من دواعى القلق، حتى يكون ممن قال الله فيهم: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ۝ ارجعى إلى ربك راضية مرضية ۝ فادخلى فى عبادى ۝ وادخلى

---

(١) ص ٢٧٧، ٢٧٨ من الشعاعات (الشعاع الحادى عشر - الثمرة).

جنتي﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠).

• قلق الأطفال وحيرتهم أمام موت أحبائهم[(١)]:

إن الأطفال الذين يمثلون ربع البشرية، لا يمكنهم أن يتحملوا تلك الحالات، التى تبدو مؤلمة ومفجعة أمامهم، من حالات الموت والوفاة، إلا بما يجدونه فى أنفسهم وكيانهم الرقيق اللطيف، من القوة المعنوية الناشئة من "الإيمان بالجنة".. إذ لولا هذا الإيمان، لاضطروا أن يقضوا حياة ملؤها الوقاحة والاضطراب والهموم الأليمة.. فلا يهنأون بألعابهم، ولا يتسلون بلعبهم، لأن الموت الذى يصيب من حولهم من الأطفال، يؤثر بالغ التأثير فى نفس كل طفل، وفى قلبه الذى سينطوى فى المستقبل، على آمال ورغبات كثيرة، وفى روحه التى لا تستطيع الثبات، فتصاب بالقلق والحيرة، حتى تصبح حياته وعقله، وسيلتى عذاب له، فلا يجدى ما يتسلى به من لهو ولعب نفعاً، قبل أن يجد لتساؤله وحيرته جوابا.

وهكذا يأتى الإيمان بالجنة، ليفتح باب الأمل المشرق أمام طبائع الأطفال الرقيقة، التى لا تتمكن من المقاومة والصمود، وتبكى لأدنى سبب، فيتمكنون من العيش بهدوء واطمئنان، بعيدا عن القلق النفسى.. ويحاور الطفل المؤمن بالجنة نفسه قائلاً: "إن صديقى أو أخى الذى توفى، قد أصبح الآن طيراً من طيور الجنة، فهو أكثر منا أنسا وانطلاقا وتجوالاً.. وإن والدتى التى توفيت، قد مضت إلى الرحمة الإلهية الواسعة، وستضمنى أيضا إلى صدرها الحنون فى الجنة، فأرى تلك الوالدة الشفوقة".

---

(١) ص ٢٨٠ من الشعاعات، ص ١٠٤ من الكلمات.

• قلق الشيوخ حيال قرب انطفاء حياتهم (١) :

كذلك الشيوخ الذين يمثلون ربع البشرية، فإنهم يعيشون ضراما روحيا، واضطرابا نفسيا، وقلقا قلبيا، حيال انطفاء حياتهم قريبا، ودخولهم تحت التراب، وقد أوصدت الدنيا الجميلة أبوابها في وجوهم.. ولا يجدون الصبر والسلوان، من قرب انطفاء شعلة حياتهم، العزيزة عليهم، ولا من انغلاق باب دنياهم، إلا في الإيمان بالله واليوم الآخر.. حيث يقول لهم هذا الإيمان:

- "لا تغتموا أيها الشيوخ ولا تبالوا كثيراً، فإن لكم شبابا خالداً وهو أمامكم، وسيأتي حتما. وأن حياة ساطعة بهيجة، وعمراً مديداً أبدياً في انتظاركم، وستلتقون بأولادكم وأقاربكم الذين فقدتموهم، وجميع حسناتكم محفوظة، وستأخذون ثوابها، حسب وعد الرحمن الرحيم: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين﴾ (الطور:٢١).

- كما أمدهم القرآن بسلاح بتار، يواجهون به شدائد الحياة، ومنغصاتها ومصائبها وآلامها، التي تشتد وطأتها عليهم في شيخوختهم. ذلك السلاح هو الدعاء، حيث يطمئن حياتهم، بأنوار السلوى المشعة من نقطة استنادهم بالله، كما استند إليه الأنبياء في ظروف الشيخوخة، التي تشبه ظروفهم:

﴿كهيعص ۞ ذكر رحمت ربك عبده زكريا ۞ إذ نادى ربه نداء خفيا ۞ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا﴾ (مريم: ١-٤).

- .ولم يكتف القرآن بهذا، بل سلك طرقا إيجابية، في إدخال الطمأنينة واستقرار النفس والقلب للشيوخ، بأن أوصى الأبناء بتوقير الوالدين والبر

---

(١) ص ٢٨٠ ، ٢٨٤ من الشعاعات ، از ٠ من الكلمات - ص ٣٤١-٤٠٩ من اللمعات "رسالة الشيوخ".

بهما، وخاصة عند الكبر، حيث الضعف والعجز، اللذان يصبحان محورين لجلب الرحمة الإلهية الواسعة. فقال تعالى: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤).

وهكذا يحول الإيمان قلق الشيخوخة وعجزها، إلى اطمئنان وقوة، لأنهم يستندون إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة، وصف نفسه بأنه الرحمن الرحيم، السلام المؤمن المهيمن.. فكيف يقلق الشيوخ وهم يعيشون في كنف الرحمة الإلهية الواسعة، التي أسبغت عليهم الرحمة، على صورة بركة تعمهم، وتعم من حولهم، فتخفف وقع المصائب والأحداث.

- قلق الشباب أمام ثورة وجيشان رغباتهم وهواهم (١) :

إن الشباب في حالة قلق دائم، لأنهم لا يصغون غالبا لصوت عقولهم الجريئة. فرغباتهم وهواهم في ثورة وجيشان، وهم مغلوبون على أمر حواسهم ونوازعهم.. فإذا ما فقد هؤلاء الشباب الإيمان بالله واليوم الآخر، ولم يتذكروا عذاب جهنم، فإن أموال الناس وأعراضهم، وراحة الضعفاء، وكرامة الشيوخ، تصبح مهددة بالخطر.

فماذا يقول لهم الإيمان؟

- يقول لهم: إذا ما بذل الشاب ما يملك من طاقة مؤقتة، في سبيل الخير والصلاح، ضمن دائرة الطهر والعفة والاستقامة، فإن الأوامر السماوية كلها تبشره، بأنه سيغنم به شبابا باقياً، لا زوال له.. ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ (الكهف: ١٣).
- ويقول لهم: إن نشوة الشباب وسفاهته، وأذواقه العابرة -في غير ما أحل

---

(١) ص ٢٥٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ من الشعاعات (الشعاع الحادي عشر - الثمرة).

الله- تسبب آلاما أكثر وأعمق، فى ذات اللذة نفسها، فضلاً عن العقاب الرهيب فى الآخرة، والعذاب المرير فى القبر، والعقاب فى الدنيا المترتب على الذنوب والآثام.. فليحذر الشباب طريق الشهوات، الذى يعرضهم لعذاب الدنيا والآخرة، ويحرمهم من اطمئنان النفس وراحة القلب.. وليكن إمامهم وقدوتهم: سيدنا يوسف، الذى رفض كل إغراءات الفتنة: **﴿قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه﴾ (يوسف: ٣٣).**

- ويقول لهم مستحثا فيهم حيوية الشباب وعزيمتهم، بحيث يقومون بدورهم الإيجابى فى الحياة، لتحقيق كل دواعى الأمن النفسى، والأمان العقائدى: **﴿يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ (لقمان: ١٧).**

وهكذا فإن الإيمان يحمى هؤلاء الشباب من القلق الناتج عن طيش أنفسهم ونزواتها، وفى نفس الوقت يحميهم من أن تتقلب أهواؤهم إلى جحيم، تتأجج على الضعفاء والعجائز، وتحويل الحياة الإنسانية السامية، إلى حياة حيوانية سافلة، حيث "الحكم للغالب".

• قلق المظلومين وذوى المصائب والفقراء والمساجين (١):

إن كل هؤلاء الذين يمثلون الجزء الأهم من البشرية: يعانون أشد حالات الضيق واليأس والقلق والاضطراب وسورة الثأر، كل حسب قدرته النفسية.. فنرى المظلومين يتجرعون كئوس الإهانة التى يرونها من الظلمة - دون أن يتمكنوا من الانتصاص منهم، ولا من إنقاذ شرفهم وكرامتهم، من بين مخالبهم. وهنا يقدم لهم القرآن الدواء، الذى يشفى ما فى صدورهم، بأن هناك مليك مقتدر، سوف ينتقم من هؤلاء الظالمين. فيقول المولى جل شأنه: **﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾**

---

(١) ص ٢٨٠، ٢٨٤ من اللمعات، ص ٢٧٧، ٢٨٤ من الشعاعات.

(إبراهيم: ٤٣).

- أما ذوى المصائب فهم يشعرون باليأس الأليم، النابع مما أصاب أموالهم وأولادهم من الضياع فى الكوارث.. وهنا تنبعث كلمات القرآن الحكيم، تقدم الصبر والسلوان، وتحقق الطمأنينة والأمان: **﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ (البقرة: ١٥٧).**

- أما المساجين: فإنهم يشعرون بضيق شديد، ناشئ من آلام السجن وعذابه لسنوات عدة.. فيفتح لهم القرآن باب السلوان، لإزالة ما خيم على صدورهم من قلق ويأس.. ويقول لهم الرحمن الرحيم: **﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ (الزمر: ٥٣).**

بل إن القرآن يحبب إليهم السجن، إذا كان هذا السجن بسبب الاعتصام بمنهج الله، والعض عليه بالنواجذ، كما سبق أن قلنا عن سيدنا يوسف عليه السلام.

ويقول الإمام النورسى(١): يمكننى القول إنه لولا الإيمان بالآخرة، الذى أمدنى وإخوانى بالصبر فى مصيبتنا الرهيبة، ودخولنا السجن هذا - دون ذنب اقترفناه - لكان تحمل مرارة يوم واحد، من أيام العذاب، كالموت نفسه، ولساقتنا هذه المصيبة إلى ترك الحياة ونبذها. ولكن نور الإيمان بالآخرة وقوته قد منحنى صبراً وجلداً، وعزاء وتسلية، وصلابة وشوقا للفوز بثواب جهاد عظيم، فى هذا الامتحان، إلى حد، بت أعد نفسى فى مدرسة كلها خير وجمال، وحق أن نطلق عليها "المدرسة اليوسفية".

---

(١) ص ٢٨٢ من الشعاعات الشعاع الحادى عشر - الثمرة.

• قلق المرضى[١]:

إن آلام المرض تجعل المريض قلقاً، يئن من الآلام، ويخشى الموت نتيجة المرض.. ولما كانت الدنيا دار عمل ومحل عبادة، فالأمراض والمصائب – عدا الدينية منها – وبشرط الصبر عليها، تكون ملائمة جداً مع ذلك العمل، بل منسجمة تماماً مع تلك العبادة، حيث أنها تمد العمل بقوة، وتشد من أزر العبادة، فلا يجوز التشكى منها، بل يجب التحلى بالشكر لله بها، حيث أن تلك الأمراض والنوائب، تحول كل ساعة من حياة المصاب إلى عبادة يوم كامل[٢].

فالعبادة قسمان: قسم إيجابى وقسم سلبى:

والبلايا والأمراض من القسم الثانى، حيث تجعل صاحبها يشعر بعجزه وضعفه، فيلتجىء إلى ربه الرحيم، ويتوجه إليه ويلوذ به، كما علمنا القرآن الكريم: ﴿**وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾ **(الأنبياء: ٨٣، ٨٤)**.

ويداوى الإمام النورسى – بروح الإيمان – قلق المريض فيقول له[٣]:

أيها المريض القلق دون داع للقلق! أنت قلق من وطأة المرض وشدته، فقلقك هذا يزيد ثقل المرض عليك. فإذا كنت تريد أن تخفف المرض عنك، فاسع جاهدا للابتعاد عن القلق. أى: تفكر فى فوائد المرض، وفى ثوابه، وفى حثه الخطى إلى الشفاء. فاجتث جذور القلق من نفسك، لتجتث المرض من

---

(١) يمكن الرجوع إلى رسالة المرضى ص ٣١٥ : ٣٣٨ من اللمعات للتعرف على المنح الإلهية التى يعطيها الله للمرضى بحيث يصبح المرض نعمة كبرى تستحق الشكر وليس القلق كما وضح ذلك الإمام النورسى بإسهاب.

(٢) ص ١٠ : ١٣ من اللمعات (اللمعة الثانية).

(٣) ص ٣٢٤ من اللمعات (اللمعة الخامسة والعشرون).

جذوره. نعم، إن القلق (أو الوسوسة) يضاعف مرضك ويجعله مرضين. لأن القلق يبث فى القلب - تحت وطأة المرض المادى - مرضا معنويا، فيدوم المرض المادى مستنداً إليه.. فإذا ما أذهبت عنك القلق والهواجس، بتسليم الأمر لله والرضا بقضائه، وباستحضار حكمة المرض، فإن مرضك المادى سيفقد فرعاً من جذوره فيخفف، وقسم منه يزول.

وإذا ما رافقت المرض المادى أوهام وهواجس، فقد يكبر عشر معشار تلك الأوهام، بوساطة القلق إلى معشار. ولكن بانقطاع القلق، يزول تسع من عشرة، من مفعول ذلك المرض.. وكما أن القلق يزيد المرض، كذلك يجعل المريض كأنه يتهم الحكمة الإلهية، وينتقد الرحمة الإلهية، ويشكو من خالقه الرحيم، لذا يؤدب المريض بلطمات التأديب - بخلاف ما يقصده هو - مما يزيد مرضه. إذ كما أن الشكر يزيد النعم، فالشكوى كذلك تزيد المرض والمصيبة.. وذلك كما قال المولى ﷻ: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾ (إبراهيم: ٧).

وهكذا فإن القلق فى حد ذاته مرض، وعلاجه إنما هو فى معرفة حكمة المرض. فإذا ما عرف المريض حكمته وفائدته، فليمسح قلقه بذلك المرهم، ولينج بنفسه، ويقل بدلاً من "وا أسفاه": "الحمد لله على كل حال".

- قلق الإنسان داخل بيته[(١)]:

إن بيت كل إنسان هو دنياه الصغيرة، بل جنته المصغرة، فإن لم يكن "الإيمان بالله واليوم الآخر" حاكما ومهيمنا فى سعادة هذا البيت، لوجد كل فرد من أفراد تلك العائلة، اضطرابا أليماً، وعذاباً شديداً فى علاقة بعضهم ببعض، حسب درجات رأفته ومحبته لهم، فتتحول تلك الجنة إلى جحيم لا يطاق.

(١) ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ من الشعاعات (الشعاع الحادى عشر - الثمرة).

فالوالدة مثلا - التى تضحى بنفسها لأجل ولدها - كلما رأت ابنها يتعرض للخطر، ارتعشت هلعاً وخوفاً عليه. والأولاد كذلك عندما لا يستطيعون إنقاذ آبائهم أو إخوانهم، من المصائب التى لا تنقطع، يظلون فى قلق دائم، ويحسون خوفاً مستمراً.

وهنا يمدهم القرآن بأنواع من العلاج شتى:

- أعظم أنواع العلاج هو الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره، وتسليم الأمر لله، حيث يرتكزون على نقطة ارتكاز قوية، تمدهم بالصبر والسكينة والاطمئنان. وذلك فى قوله تعالى: **﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (التوبة:٥١).**

- ينشر "الإيمان بالآخرة" نوره فى البيت المسلم، فينور أرجاءه مباشرة ويستضىء.. لأن علاقة القربى، والرأفة والمحبة التى تربط أفراده، لا تقاس عندئذ ضمن زمن قصير جداً، بل تقاس وفق علاقات تمتد إلى خلودهم، وبقائهم فى دار الآخرة، حيث السعادة الأبدية.. وهنا يصبح الموت والزوال والفراق، وسيلة لنيل تلك السعادة، فيخف وطأة الشعور بالقلق والخوف إلى حد كبير.

- يؤدى الإيمان بتعاليم القرآن، إلى انبساط الفضائل داخل البيت المسلم، فيظهر فيه الاحترام المتبادل، والرحمة الجادة، والمحبة الخالصة بلا عوض، والمعاونة مع الخدمة الحقة بلا احتيال، والمعاشرة والإحسان بلا رياء، والفضيلة والتوقير بلا استكبار. حيث يهتف القرآن بالجميع قائلا: "دعوا القلق والخوف، فقدامكم جنة النعيم، فلا تشغلوا أنفسكم بما يعطلكم عنها".

وهكذا نكون قد عرضنا - بما يسمح به المقام - بعض الحلول القرآنية، فى معالجة ذلك المرض النفسى، الذى قلما ينجو منه إنسان وهو القلق.. وننتقل إلى إلقاء الضوء على مشكلة أخرى من مشاكل الإنسان النفسية.

المشكلة النفسية التاسعة

الأنانية والعجب والغرور وما يتبعهم من ظلم واستبداد

إن القوى والميول المودعة فى الإنسان لم تحدد، خلافاً للحيوان، لذا فإن الميل للظلم، وحب الذات يتماديان كثيراً، وبشكل مخيف [1].

نعم، إن حب الإنسان لنفسه، وتحرى مصلحته وحده، وحبه لذاته وحده، من الأشكال الخبيثة لـ "أنا والأنانية". وإذا ما اقترن العناد والغرور بذلك الميل، تولدت فظائع بشعة، بحيث لم يعثر له البشر على اسم بعد.

ولذلك فإن الآية الكريمة: ﴿إنه كان ظلوما جهولا﴾ (الأحزاب:٧٢)، تبين استعداد الإنسان إلى الظلم الرهيب المغروز فى فطرته. فالذى تمكن فيه الحرص والأنانية، يصبح إنساناً يريد القضاء على كل شيء، يقف دون تحقيق أهوائه، حتى تدمير العالم، والجنس البشرى إن استطاع.

ولاشك أن الأنانية من الأمراض الخطيرة، التى يمكن أن تصيب النفس البشرية بسهولة، وهى تتعارض كلية مع الشريعة الإسلامية، التى تهدف فى مجموعها إلى تفاعل الإنسان مع المجتمع، تفاعلاً تاماً، حتى يصير ذلك المجتمع كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً.

كيف تتعاظم الأنانية والعجب والغرور فى نفس الإنسان؟

إن الغفلة عن المالك الحقيقى ﷻ، سبب لفرعونية النفس، فتتوهم نفسها مالكة لها، فيتشكل فى وهمها دائرة لحاكميتها، ثم تقيس الناس، بل الأسباب على نفسها. فتقسم مال الله عليها، فتعارض الأحكام الإلهية، وتبارز مع مقدرات خالقها.. مع أن الحكمة فى إعطاء أنانية لها: أن تصير واحداً قياسياً

(١) ص ٣٤٥ من صيقل الإسلام (السنوحات).

لفهم صفات الألوهية، فأساءت بسوء الاختيار، فصرفتها فى غير ما وضعت له، فالنفس ليست مالكة لنفسها ولا لجسمها، الذى هو ماكينة دقيقة عجيبة إلهية، يعمل فيه فى كل وقت قلم القدرة، بيد القضاء والقدر(١).

ويخاطب الإمام النورسى نفسه قائلاً: اعلم يا أنا، أن ما التفت على رأسك من سلاسل الإيجاد العلمية، واتصلت بأنانيتك من سطور الصنائع الشعورية، وما أخذت بأيدى حوائج ذاتك، من وسائل المدد والإجابة، تدل على أن موجدك وصانعك ومغيثك، يسمع أنينات فاقاتك، فيتحنن لها، ونداء حاجاتك وآمالك، فيتعهدها بفضله سبحانه.

فا أيتها الحجيرة الكبرى المعبرة "بأنا" المركبة من تلك الحجيرات: فقولى يا إلهى يا ربى، يا خالقى، يا مصورى، يا مالكى، يا سيدى، يا مولاى.. لك الملك ولك الحمد، أنا مسافر فى وديعتك وأمانتك، ومملوكك الذى هو هذا الجسد بمشتملاته.. فيا أنا: لم تتملك ما لا يصير لك ملكا؟ فتفرغ من هذه الدعوى الباطلة، إذ توهم التملك يوقعك فى ألم أليم، ويعرضك أن تمرق من الدين (٢).

واعلمى يا نفس: أن ما أنعم الله عليك، من وجودك وتوابعه، ما هو إلا إباحة لا تمليك فلك أن تتصرفى فيما أعطاك، كما يرضى من أعطى، لا كما ترضى أنت (٣).

وعليك أن ترددى دائما: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ (البقرة: ١٥٦)، أى أن المال له، وأنا فى أمره، وإليه أذهب، ما على لو لم أقصر فى حفظه.. فهذا بلاشك أدعى إلى توجيه.. "أنا" فى مسارها الصحيح.

---

(١) ص ١٢٨ من المثنوى العربى النورى (قطرة).

(٢) ص ١٣٠ من المثنوى.

(٣) ص ٢٠٨ من المثنوى.

ويقول النورسى – رحمه الله –[١]: إن هذه ثلاثون سنة لى، مجادلة مع طاغوتين وهما: "أنا" فى الإنسان، والطبيعة فى العالم.

أما "أنا" فرأيته مرآة ظليا حرفيا.. لكن نظر الإنسان إليه نظراً اسميا قصديا بالأصالة، فتفرغن عليه وتتمرد.

أما "الطبيعة" فرأيتها صنعة إلهية، وصبغة رحمانية. لكن نظر البشر إليها بنظر الغفلة، جعل الطبيعة تتأله عند ماديهم، فأنشأت كفران النعم المنجر إلى الكفر.

فيا نفسى المغرمة بالفخر، المعجبة بالشهرة، الهائمة وراء المدح والثناء! يا نفسى الغوية[٢]:

إن كانت بذيرة التين، التى هى منشأ ألوف الثمرات، والساق النحيفة الصلبة، التى تعلقت بها مئات العناقيد.. إن كانت هذه الثمرات والعناقيد، من عمل تلك البذيرة والساق، ومن مهارتهما، لزم كل من يستفيد من تلك النتائج، أن يبدى المدح ويظهر الثناء لهما!

أقول: إن كانت هذه الدعوى حقاً، فلربما يكون لك يا نفسى حق أيضا فى الفخر والغرور، لما حُملت من النعم.. بينما أنت لا تستحقين إلا الذم، لأنك لست كتلك البذيرة، ولا كتلك الساق، وذلك لما تحملين من جزء اختيارى.. فتنتقصين بفخرك وغرورك من قيمة تلك النعم، وتبخسين حقها، وتبطلينها بكفرانك النعم، وتغتصبينها بالتملك.

فليس لك الفخر، بل الشكر.. ولا تليق بك الشهرة، بل التواضع والحياء.. وما عليك إلا الاستغفار، وملازمة الندم، لا المدح.. فليس كمالك فى الأنانية، بل فى الاستهداء.

---

(١) ص ٢٢١ من المثنوى (حبة).

(٢) ص ٢٤٨ : ٢٤٩ من الكلمات (الكلمة الثامنة عشرة).

نعم يا نفسي! أنت في جسمي تشبهين الطبيعة في العالم، فأنتما (النفس والطبيعة) قد خُلقتما قابلين للخير، مرجعين للشر. أي أنتما لستما الفاعل ولا المصدر، بل المنفعل ومحل الفعل، إلا أن لكما تأثيرا واحدا فقط، وهو تسببكما في الشر، عند عدم قبولكما الخير الوارد، من الخير المطلق، قبولاً حسناً.

فيا نفسي! لا تقولي: إنني مظهر الجمال، والذي ينال الجمال يكون جميلاً".. كلا إنك لم تتمثلي الجمال تمثلاً تاماً، فلا تكونين مظهراً له، بل ممراً إليه.

ولا تقولي أيضاً: إنني قد انتخبت من دون الناس كلهم، وهذه الثمرات إنما تظهر بوساطتي، بمعنى أن لي فضلاً ومزية.. كلا.. وحاشى لله.. بل قد أعطيت تلك الثمرات، لأنك أحوج الناس إليها، وأكثرهم إفلاسا، وأكثرهم تألماً.. وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾ (آل عمران: ١٨٨)**.

وهكذا: فإن الإنسان الذي يعتمد على أنانيته وغروره، يقع في شراك ظلمات الغفلة، ويبتلى بأغلال الضلالة القاتلة. ويحق عليه حكم الآية الكريمة[(١)]: **﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (البقرة: ٢٥٧)**، أما إذا أغاثت الإنسان الهداية الإلهية، ووجد الإيمان إلى قلبه سبيلاً، وانكسرت فرعونية النفس وتحطمت، وأصغى إلى كتاب الله، فتصطبغ الكائنات في نظره بالنهار، وتمتلئ بالنور الإلهي، وينطق العالم برمته: **﴿الله نور السماوات والأرض﴾ (النور: ٣٥)**.

وفي الحقيقة: فإن محبة الإنسان الشديدة لنفسه، والمغروزة فيه، ما هي إلا محبة ذاتية، متوجهة إلى ذات الله الجليلة سبحانه.. إلا أنه أساء استعمال

(١) ص ٣٥١ ، ٣٥٢ من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

تلك المحبة فوجهها إلى ذاته.. ولذلك يخاطب الإمام النورسى نفسه قائلا[1]: مزقى يا نفسى إذن ما فيك من "أنا" واظهرى "هو". فإن جميع أنواع محبتك المتفرقة على الكائنات، إنما هى محبة ممنوحة لك تجاه أسمائه الحسنى، وصفاته الجليلة.. بيد أنك أسأت استعمالها. فستنالين جزاء ما قدمت يداك. لأن جزاء محبة غير مشروعة، وفي غير محلها، مصيبة لا رحمة فيها.

واستمعى يا نفسى، واتبعى هذا العهد الأزلى، بقوله تعالى: **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ (آل عمران: ٣١)**.

لماذا الأنانية والعجب والغرور؟

يستنكر الإمام النورسى بشدة تعاظم أنانية الإنسان، وعجبه وغروره بنفسه، لأنه يوقن يقينا لا حدود له، بقول الله ﷻ: **﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾ (النساء: ٢٨)**، ومن وحى هذه الآية الكريمة، يخاطب نفسه، ويخاطب كل إنسان يبحث عن الحقيقة، فيقول:

- يا "أنا" المتمرد المغرور المتكبر! انظر إلى درجة ضعفك وعجزك وفقرك ومسكنتك.. إذ يبارزك ويصارعك "الحوين" الذى لا يرى إلا بتكبيره مرات ودرجات، فتخر صعقا[2].
- يا أنا! أراك أنك لا ترى تناسبا بينك وبين العلى القدير.. فأنت عجز مطلق، وفقر مطلق، قد تضايقت عليك الحدود والقيود، حتى صرت كذرة، غابت فى رمال الجزئيات، وكنملة تراكمت عليها جبال الحادثات، وكنحلة تفاقمت عليها العاصفات. أما العلى القدير: فهو لا نهاية لقدرته وغنائه، ولا حد ولا قيد لتجليات أسمائه وصفاته.. جميع الخلق فى قبضة قدرته، والسماوات مطويات بيمينه، لا تتحرك ذرة فى الكون إلا بإذنه، لا

---

(١) ص ٤١٣ من الكلمات (الكلمة الرابعة والعشرون).

(٢) ص ١٧٨ من المثنوى (حباب).

شريك له فى ملكه وألوهيته، ولا منازع له فى جبروته وربوبيته، ولا إله إلا هو[1].

- نعم! لو كانت وظيفتك فى الدنيا الاشتراك مع فاطرك، فى ربوبيته سبحانه، لكانت المناسبة لازمة فى المعاملة معه.. لكن هيهات! أين يد البعوضة من نسج قميصات مطرزات، قُدت على مقدار قامات هذه العوالم.. بل وظيفتك فى فطرتك، وغاية كمالك فى استعداد ماهيتك، إنما هى: العبودية التى على المحوية تنبت (وليس الأنانية والعجب والغرور). والعبودية ضد الربوبية والمالكية.. فعدم المناسبة هى المناسبة. فبدرجة علمك ببعدك عن الربوبية والمالكية، تصير عبداً محبوباً مرحوماً.. وإن العبودية هى مرآة الربوبية بالضدية، ككتابة الحروف النورية على صحيفة الظلمة، فكلما تقربت إلى العدم، تراءت منها أعالى مراتب جلوات الوجود للواجب ﷻ، ولا إله إلا هو.

- أيها الإنسان! إن من دساتير القرآن الكريم وأحكامه الثابتة: أن لا تحسبن ما سوى الله تعالى أعظم منك، فترفعه إلى مرتبة العبادة.. ولا تحسبن أنك أعظم من شيء من الأشياء، بحيث تتكبر عليه. إذ يتساوى ما سواه تعالى فى البعد عن "المعبودية" وفى نسبة المخلوقية[2].

- أيها الإنسان: لا تتكبر على الحيوان، إن سبب رفعتك على سائر الحيوانات، إنما هو ضعفك وعجزك.. هل ترى فى الحيوانات أعجز منك فى تحصيل لوازم الحياة؟ بل ما يحصل لك بالتجارب والتدرس فى عشرين سنة – مما يلزم لحفظ حياتك – يحصل للحيوان فى عشرين يوما، وبعضا فى عشرين ساعة، وبعضا فى عشرين دقيقة.. بل فردُه برأسه، يساوى فى حفظ الحياة الحيوانية، جماعة متعاونة منكم. كما أن

---

(١) ص ٢٩٣ من المثنوى (نيل الزهرة).

(٢) ص ١٧٥ من اللمعات (اللمعة السابعة عشرة).

فرداً منكم، يساوى أنواعاً منهم، من جهة كمال الإنسانية المنحصرة فى الإسلامية والعبودية. يا هذا ويا "أنا" إما تصير أدنى من أدنى الحيوانات، وأذل وأعجز، وإما تصير أعز وأكمل من أنواعها.. فاختر ما شئت. واعرف عجزك وضعفك، وأن قدرتك وقوتك فى الدعاء والبكاء لدى مالكك[١].

وصدق الله العظيم، وهو ينهى عن العجب والغرور، فى قوله تعالى: **﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ (لقمان: ١٨).**

أخطار الأنانية والغرور على حقل العمل الإسلامى:

تعتبر الأنانية والغرور من أشد الأخطار، التى يمكن أن تواجه المجتمع الإسلامى، لأنها تؤدى إلى تفكك المجتمع، وسيادة قوى الضلال فيه.

ويقول الإمام النورسى فى ذلك[٢]: إن الموالين للضلالة يرومون سحب إخوانى عنى، مستفيدين من الأنانية والغرور الكامن فى الإنسان.. وفى الحقيقة إن أخطر وأضعف عرق ينبض فى الإنسان، إنما هو عرق الغرور، إذ يمكنهم بالتربيت على ذلك العرق وتلطيفه، أن يدفعوه إلى كثير من المفاسد.

إن أهل الضلالة فى هذا العصر قد امتطوا "أنا" فهو يجوب بهم فى وديان الضلالة. فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك "أنا".. وحتى لو كانوا على حق وصواب فى استعمالهم "أنا" فعليهم تركه،، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم، أنهم مثلهم يعبدون النفس.. لذا فإن عدم ترك "أنا" بخس للحق تجاه خدمة الحق.

---

(١) ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ من المثنوى (نور من أنوار نجوم القرآن).

(٢) ص ٥٤٩ : ٥٥١ من المكتوبات (القسم السادس من المكتوب التاسع والعشرين).

زد على ذلك أن الخدمة القرآنية التى اجتمعنا عليها، ترفض "أنا" وتطلب "نحن.. فلا تقولوا: "أنا".. بل قولوا: "نحن".

فيا إخوانى: إن أخطر جهة من الأنانية فى عملنا هذا، هو الحسد والغيرة، فإذا لم يكن العمل خالصاً لله وحده، فإن الحسد يتدخل فيفسد العمل. فكما أن إحدى يدى الإنسان لا تحسد الأخرى، ولا تغار منها، وكذا لا تحسد العين أذنه، ولا يغار قلبه من عقله.. كذلك أنتم، فكل منكم فى حكم عضو وحاسة، فى الشخص المعنوى لجماعتنا هذه.. فواجبكم الوجدانى ألا يحسد بعضكم بعضا، بل يفتخر كل منكم بمزايا الآخر ويسعد بها.

بقى هناك أمر آخر، وهو أخطر الأمور، وهو: وجود الحسد والغيرة فيكم، أو فى أحبابكم، تجاه أخيكم هذا الفقير. حيث فيكم علماء أجلاء متبحرون، وفى قسم من أهل العلم غرور علمى، ولو أنه متواضع بالذات، إلا أنه فى تلك الجهة، مغرور وأنانى، فلا يدع غروره فورا. ومهما التزم عقله وتمسك قلبه بالخدمة، إلا أن نفسه تروم التميز والظهور والشهرة، من جراء ذلك الغرور العلمى. بل إنها ترغب حتى فى إظهار المعارضة للرسائل المكتوبة.. وعلى الرغم من أن قلبه يحب الرسائل، وأن عقله يعجب بها ويجدها رفيعة، فإن نفسه تضمر عداء آتيا من الغيرة العلمية، وتتمنى تهوين شأن الكلمات، كى تبلغها نتاجات فكره.. وهو بهذا لا يمتثل لقول الله ﷻ: **﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ (النساء: ٣٢).**

كيف عالج القرآن الأنانية والعجب والغرور؟

إن القرآن الكريم فى مجمله، يهدف إلى اقتلاع جذور ذلك المرض النفسى، حتى يحرر الإنسان من هوى النفس، ومن كل ما يقف عقبة فى سبيل الوصول إلى الله. وقد استعرضنا فى المواقف السابقة بعض الآيات القرآنية، التى تحقق هذا الهدف.. وسنذكر هنا خطوات أربع من القرآن

العظيم[1]، تعتبر أقصر الطرق لعلاج النفس البشرية من الأنانية والعجب والغرور.

الخطوة الأولى: تشير إليها الآية الكريمة: **﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ (النجم:٣٢)**، ويقصد بها: عدم تزكية النفس.. ذلك لأن الإنسان حسب جبلته، وبمقتضى فطرته، محب لنفسه بالذات. بل لا يحب إلا ذاته في المقدمة، ويضحي بكل شيء من أجل نفسه، ويمدح نفسه مدحاً، لا يليق إلا بالمعبود وحده، وينزه شخصه ويبرئ ساحة نفسه، بل لا يقبل التقصير لنفسه أصلاً، ويدافع عنها دفاعاً قوياً بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما أودعه الله فيه من أجهزة، لحمده سبحانه وتقديسه، إلى نفسه.. فيصيبه وصف الآية الكريمة: **﴿من اتخذ إلهه هواه﴾ (الفرقان:٤٣)**، فيعجب بنفسه ويعتد بها.. فلابد إذن من تزكيتها. فتزكيتها في هذه الخطوة وتطهيرها، هي بعدم تزكيتها.

الخطوة الثانية: كما تلقنه الآية الكريمة من درس: **﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ (الحشر:١٩)**، وذلك: أن الإنسان ينسى نفسه ويغفل عنها، فإذا ما فكر في الموت صرفه إلى غيره، وإذا ما رأى الفناء والزوال دفعه إلى الآخرين، وكأنه لا يعنيه بشيء، إذ مقتضى النفس الأمارة، أنها تذكر ذاتها في مقام أخذ الأجرة والحظوظ، وتلتزم بها بشدة، بينما تتناسى ذاتها في مقام الخدمة والعمل والتكليف. فتزكيتها وتطهيرها وتربيتها في هذه الخطوة هي: العمل بعكس هذه الحالة: أي عدم النسيان في عين النسيان، أي نسيان النفس في عين النسيان، أي نسيان النفس في الحظوظ والأجرة، والتفكر فيها عند الخدمات والموت.

الخطوة الثالثة: هي ما ترشد إليه الآية الكريمة: **﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ (النساء:٧٩)**، وذلك أن ما تقتضيه النفس دائماً، أنها تنسب الخير إلى ذاتها، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب. فعلى المرء في

---

(١) ص ٥٥٨ : ٥٥٦ من الكلمات (ذيل الكلمة السادسة والعشرين).

هذه الخطوة، أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يرى كل محاسنه وكمالاته، إحسانا من فاطره الجليل، ويتقبلها نعما منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر، ويحمد بدل المدح والمباهاة. فتزكية النفس في هذه المرتبة، هي في سر هذه الآية الكريمة: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ (الشمس: ٩).

وهي أن تعلم بأن كمالها في عدم كمالها، وقدرتها في عجزها، وغناها في فقرها (أي كمال النفس في معرفة عدم كمالها، وقدرتها في عجزها أمام الله، وغناها في فقرها إليه).

الخطوة الرابعة: هي ما تعلمه الآية الكريمة: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ (القصص: ٨٨)، ذلك لأن النفس تتوهم نفسها حرة مستقلة بذاتها، لذا تدعي نوعا من الربوبية، وتضمر عصيانا حيال معبودها الحق.. فبإدراك الحقيقة الآتية، ينجو الإنسان من ذلك، وهي: كل شيء بحد ذاته، وبمعناه الاسمي: زائل، مفقود، حادث، معدوم، إلا أنه في معناه الحرفي، وبجهة قيامه بدور المرآة العاكسة، لأسماء الصانع الجليل، وباعتبار مهامه ووظائفه: شاهد، مشهود، واجد، موجود.

فتزكيتها في هذه الخطوة هي معرفة: أن عدمها في وجودها، ووجودها في عدمها، أي إذا رأت ذاتها، وأعطت لوجودها وجوداً، فإنها تغرق في ظلمات عدم، يسع الكائنات كلها.. يعني إذا غفلت عن موجدها الحقيقي وهو الله، مغترة بوجودها الشخصي، فإنها تجد نفسها وحيدة غريقة، في ظلمات الفراق والعدم غير المتناهية، كأنها اليراعة في ضيائها الفردي الباهت، في ظلمات الليل البهيم.

ولكن عندما تترك الأنانية والغرور، ترى نفسها حقاً أنها لا شيء بالذات، وإنما هي مرآة تعكس تجليات موجدها الحقيقي، فتظفر بوجود غير متناه، وتربح وجود جميع المخلوقات.

نعم! من يجد الله فقد وجد كل شيء، فما الموجودات جميعها، إلا تجليات أسمائه الحسنى جل جلاله.

وهكذا إذا اتبع الإنسان المؤمن تلك الخطوات، وجاهد نفسه حق الجهاد، فإنه يتخلص من مرض الأنانية والعجب والغرور، ويتحرر من ظلم نفسه، وظلم الآخرين واستبدادهم.. ويعلم علم اليقين[١]:

- أن الحياة في كل ذي حياة، لها غايات لا تعد ولا تحصى، يعود إلى الحي واحد، وإلى المحيي بمقدار مالكيته الغير متناهية.. ولا حق للكبير أن يتكبر على الصغير في الخلقة، ولا عبثية في الواقع.. وإنما هي في نظر البشر، النفس الغرور، الذي يزعم ويرى: أن الأشياء كلها لأجل منافعه وهوساته، ويحسب أن لا غاية لها غير ما يعود عليه.. نعم، هذه الضيافة المفروشة على ظهر الأرض، إكرام للبشر بسر الخلافة، وبشرط استحصال لياقة الكرامة، لا له ولاستفادته فقط.

- ويعلم أن الإسلام دين التوحيد الخالص، يسقط الوسائط والأسباب عن التأثير، ويهون من شأن أنانية الإنسان، مؤسسا العبودية الخالصة لله وحده. فيقطع دابر كل نوع من أنواع الربوبيات الباطلة، ويرفضها رفضاً باتاً، بدءاً من ربوبية النفس الأمارة.. لذا لو أصبح أحد الخواص متقياً، لاضطر إلى ترك الأنانية والغرور. ومن لم يترك الأنانية والغرور يتراخ في التدين، بل يدع قسماً من أمور الدين، فالتقوى الحقيقية لا تجتمع مع الأنانية والغرور[٢].

وهذا بعكس النصرانية الحاضرة، فلقد ارتضت عقيدة البنوة.. لذا تعطي للوسائط والأسباب، تأثيراً حقيقياً، ولا تقاوم الأنانية باسم الدين، بل تمنح الأنانية نوعاً من القداسة، وكأنها وكيل مقدس عن سيدنا عيسى .. ولأجل

---

(١) ص ٢١٤ من المثنوي العربي النوري (ذيل الحباب).

(٢) ص ٦٣٥ من المكتوبات (القسم السابع من المكتوب التاسع والعشرين).

هذا فإن خواص النصارى، الذين يشغلون أرفع المقامات الدنيوية، يستطيعون أن يكونوا متدينين تديناً كاملاً، بينما في المسلمين، نادراً ما يظل الذين يلجون مثل هذه المقامات على صلابتهم الدينية، وقلما يكونون من أهل التقوى والصلاح، لعدم تركهم الأنانية والغرور.

وفى ختام حديثنا عن الأنانية نقول: إن القرآن قد نجح إلى أبعد الحدود، فى تطهير النفس المؤمنة من ذلك الداء النفسى الخطير، ولا غرو فى ذلك فهو من لدن حكيم خبير، يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور.. ومن يجد صدره ضيقاً حرجاً، وحياته أو مجتمعاته يعتصرها داء الأنانية الرهيب.. فلا يلومن إلا نفسه، ونفوس الشاردين عن منبع النور والحق والجمال.

ونواصل رحلتنا مع إعجاز القرآن الكريم، فى معالجته لمشكلات الإنسان النفسية، حيث يثبت على مر العصور والأجيال، أنه حقاً نزل من عند الحكيم الخبير، الذى وضع فى صيدلية القرآن، ما فيه شفاء لما فى الصدور، حتى يحقق الإنسان دوره من الاستخلاف فى الأرض، فى أمن وسكينة واطمئنان..

المشكلة النفسية العاشرة

السلبية وتشتت الإنسانية

إن السلبية مرض نفسى خطير، ينشأ من البعد عن الله، وعن ينابيع النور والإيمان، وهو إحدى مظاهر الأنانية التى سبق شرحها.. فالأنانية إما تؤدى إلى السلبية والانعزالية، وإما تؤدى إلى الظلم والاستبداد.

كيف تنشأ السلبية من البعد عن الإيمان؟

تنشأ تلك السلبية لأن الإنسان فيه جهتين[١]:

الأولى: جهة الإيجاد والوجود والخير والإيجابية والفعل.

الثانية: جهة التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال.

فتنمو الجهة الأولى: بتوجيه القلب والسر والروح والعقل، وحتى الخيال، وسائر القوى الممنوحة للإنسان إلى الحياة الأبدية الباقية، واشتغال كل منها بما يخصها ويناسبها من وظائف العبودية.

أما الجهة الثانية: فتنمو بالانغماس فى تفاهات الحياة، والتلذذ بملذاتها الهابطة، والانكباب على جزئيات لذاتها الفانية، دون الالتفات إلى جمال الكليات ولذائذها، الباقية الخالدة، وتسخير القلب والعقل وسائر اللطائف الإنسانية، تحت إمرة النفس الأمارة بالسوء، وتسييرها جميعا لخدمتها.. مما يعنى السقوط والهبوط والانحطاط، ليس للإنسان فقط، بل للبشرية كلها.

وهكذا[٢]: فالإيمان يؤسس الأخوة بين كل شىء، حيث لا يشتد الحرص والعداوة والحقد والوحشة فى روح المؤمن.. إذ بالدقة يرى أعدى عدوه، نوع أخ له.. بينما الكفر يؤسس أجنبية وافتراقاً، بين كل الأشياء، ويشتد فى الكافر الحرص والعداوة، والتزام النفس والاعتماد عليها، أى السلبية بكل صورها، التى تتناقض مع أوامر القرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ (آل عمران:١٠٣).

فسر تساند المؤمنين فى عباداتهم، ودعواتهم فى جماعاتهم سر عظيم، وأمر جسيم، له شأن فخيم[٣].. إذ يصير به كل فرد كالحجر المجصوص، فى

---

(١) ص ٣٦٠ : ٣٦٣ من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

(٢) ص ١٥٨ من المثنوى العربى النورى (قطرة).

(٣) ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ من المثنوى (شعلة).

البناء المرصوص. يستفيد من إخوانه فى الإيمان، بألوف ألف ألف، ما يستفيد من عمل نفسه. فإذا نظمهم سلك الإيمان، يصير كل لكل، وللكل شفيعاً، وداعياً ومسترحما، ورلجياً ومادحاً ومزكياً. وعلى رأسهم الرسول الأعظم ﷺ.. فيتلذذ كل فرد بسعادات سائر إخوانه، كتنعم الأم الجائعة بلذة ولدها. والأخ الشفيق بسعادة شقيقه. حتى يصير هذا الإنسان المسكين، مستعداً لعبودية خلاق الكائنات، وقبول السعادة الأبدية.

التعاون ودستور الحياة في القرآن الكريم:

إن الإسلام يرفض السلبية رفضاً مطلقاً، لأنها تؤدى إلى تشتت المجتمعات وتفككها، وبالتالى ضعفها، فتصبح لقمة سائغة أمام أعدائها. ولذلك قال تعالى فى قرآنه العظيم: **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (المائدة: ٢).**

وهذا التعاون ليس مفروضاً على الإنسان فقط لصالح البشرية، بل مفروض على الكون كله لتحقيق الصالح العام.. فنرى: تجاوب أعضاء الكائنات بشمسها وقمرها لمنفعة الحيوانات[1].. وتسارع النباتات لإمداد أرزاق الحيوانات، وتسابق مواد الأغذية لترزيق الثمرات، وتزين الثمرات لجلب أنظار المرتزقات، وتعاون الذرات فى الإمداد لغذاء حجيرات البدن، وعدم مقاومة التراب الصلب، ولا الحجر الصلد، لسيران لطائف رقائق عروق النباتات اللينة اللطيفة.. بل يشق الحجر قلبه القاسى، بتماس حرير أصابع بنات النبات، ويفتح التراب صدره المصمت، لسريان رائد النباتات.

وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين﴾ (فصلت: ١٠).**

---

(١) ص ٣٤٨ من المثنوى (شمة "٣").

كيف تزيد المدينة الحديثة أمراض السلبية في النفس البشرية؟

الرد على ذلك[1]: أن المدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها: أن ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي "القوة".. وهي تستهدف "المنفعة" في كل شيء.. وتتخذ "الصراع" دستوراً للحياة.. وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات.. وغايتها هي "لهو عابث" لإشباع رغبات الأهواء، وميول النفس التي من شأنها زيادة جموح النفس وإثارة الهوى.

ومن المعلوم أن شأن "القوة" هو "الاعتداء".. وشأن "المنفعة" هو التزاحم، إذ هي لا تفي بحاجات الجميع، وتلبية رغباتهم.. وشأن "الصراع" هو النزاع والجدال.. وشأن العنصرية هو "التجاوز" حيث تكبر بابتلاع غيرها.

فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة، هي التي جعلتها عاجزة – مع محاسنها – عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر، سعادة ظاهرية، بينما ألقت البقية إلى شقاء وتعاسة وقلق، نتيجة السلبية التي تعمقها في النفوس البشرية.

أما القرآن: فهو يقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، بدلا من "القوة".. ويجعل "رضى الله ونيل الفضائل" هو الغاية والهدف بدلا من "المنفعة".. ويتخذ دستور "التعاون" أساساً في الحياة بدلا من دستور "الصراع".. ويلتزم رابطة "الدين" والصنف والوطن لربط فئات الجماعات، بدلاً من "العنصرية والقومية السلبية".. ويجعل غايته: "الحد من تجاوز النفس الأمارة، ودفع الروح إلى معالي الأمور، وتطمين مشاعرها السامية، لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا، لجعل الإنسان إنساناً حقاً".

إن شأن "الحق" هو "الاتفاق".. وشأن الفضيلة هو "التساند".. وشأن "التعاون" هو "إغاثة كل للآخر".. وشأن "الدين" هو "الأخوة والتكاتف".. وشأن "إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال هو

---

(١) ص ١٤٥ ، ٤٧٢ من الكلمات (الكلمة الثانية عشرة والخامسة والعشرون).

"سعادة الدارين".

وهكذا فعلى قدر ما تفسح المدنية الحديثة المجال، لزيادة أمراض السلبية في النفوس البشرية.. فإن القرآن يضيق إلى أبعد مدى ذلك المجال، بتحويل المسار إلى الإيجابية والتفاعل، والترابط بين أبناء المجتمع الإسلامي، حتى يحققوا القوة المطلوبة، التي ترهب عدو الله وعدوهم، وآخرين من دونهم لا يعلمونهم، ولكن الله يعلم أغراضهم ونواياهم، المتربصة بالأمة الإسلامية لتقويض أركانها.. لذلك فتعاليم الإسلام بمجموعها، تعالج النفوس من السلبية، وتدفعها إلى التعاون والإيجابية.

لماذا؟

• لأنه – كما يقول الإمام النورسي[1]: في التعاون سر عجيب.. بحيث إذا اجتمع حُسن ثلاثة أشياء، صار كخمسة، وخمسة كعشرة، وعشرة كأربعين، وذلك بسر الانعكاس.. إذ في كل شيء نوع من الانعكاس، ودرجة من التمثيل.. كما إذا جمعت بين مرآتين تتراءى فيهما مرايا كثيرة، أو نورتهما بالمصباح، يزداد ضياء كل بانعكاس الأشعة.. ومن هذا السر والحكمة: ترى كل صاحب كمال، وصاحب جمال، يرى من نفسه ميلا فطرياً، إلى أن ينضم إلى مثيله، ويأخذ بيد نظيره، ليزداد حسناً إلى حسنة.. حتى أن الحجر، مع حجريته، إذا خرج من يد المعقد الباني في السقف المحدب، يميل ويُخضع رأسه، ليماس رأس أخيه، ليتماسكا عن السقوط.. فالإنسان الذي لا يدرك سر التعاون، لهو أجمد من الحجر، إذ من الحجر من يتقوس لمعاونة أخيه..

أضرار السلبية على المجتمع الإسلامي[2]:

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم

(١) ص ٤٩ من إشارات الإعجاز.

(٢) ص ٤١٣ من المكتوبات (المبحث الثالث من المكتوب السادس والعشرين).

شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ (الحجرات: ١٣).

أى: خلقناكم طوائف وقبائل وأمماً وشعوباً، يعرف بعضكم بعضاً، وتتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية.. ولم نجعلكم قبائل وطوائف، لتتناكروا فتتخاصموا.

فبناء على دستور التعارف والتعاون، الذى تشير إليه هذه الآية الكريمة: نجد أن الجيش يقسم إلى فيالق وإلى فرق وألوية، وأفواج وسرايا، وإلى فصائل وحظائر، وذلك ليعرف كل جندى واجباته، حسب تلك العلاقات المختلفة المتعددة، وليؤدى أفراد ذلك الجيش، تحت دستور التعاون، وظيفة حقيقية عامة، لتصان حياتهم الاجتماعية من هجوم الأعداء.. وإلا فليس هذا التقسيم والتمييز إلى تلك الأصناف، لجعل المنافسة بين فوجين، أو إثارة الخصام بين سريتين، أو وضع التضاد بين فرقتين.

وكذلك الأمر فى المجتمع الإسلامى، الشبيه بالجيش العظيم: فقد قُسم إلى قبائل وطوائف، مع أن لهم ألف جهة وجهة من جهات الوحدة: إذ خالقهم واحد، ورازقهم واحد، ورسولهم واحد، وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، ووطنهم واحد.. وهكذا واحد، واحد.. إلى الألوف من جهات الوحدة، التى تقتضى الأخوة والمحبة والوحدة.. بمعنى أن الانقسام إلى طوائف وقبائل – كما تعلنه الآية الكريمة – ما هو إلا للتعارف والتعاون، لا للتناكر والتخاصم. أما إذا اختلطت الروابط والوظائف، ولم تعين وتحدد، ما كان هناك تعاون ولا تعارف، واتجه الشعور القومى إلى السلبية التى تشتت الإنسانية.

فنمو الشعور القومى فى الشخص إما أن يكون إيجابيا أو سلبيا[1]:

فالإيجابى: ينتعش بنمو الشفقة على بنى الجنس، التى تدفع إلى التعاون والتعارف.

---

(١) ص ٣٣٥ من صيقل الإسلام (السنوحات).

أما السلبي: فهو الذى ينشأ من الحرص على العرق والجنس، الذى يسبب التناكر والتعاند.. والإسلام يرفض هذا الأخير.

فكيف إذن تسلل الفكر القومي السلبي في المجتمعات الإسلامية(١)؟

انتشر الفكر القومى وترسخ فى هذا العصر.. ويثير ظالمو أوروبا الماكرون بخاصة، هذا الفكر بشكله السلبى، فى أوساط المسلمين، ليمزقوهم ويسهل لهم ابتلاعهم.. فروجوا القومية السلبية المشئومة المضرة، التى تتربى وتنمو بابتلاع الآخرين، وتدوم بعداوة من سواها.. وهذا يولد المخاصمة والنزاع.

ولهذا ورد فى الحديث الشريف: «إن الإسلام يجب ما قبله»، ويرفض العصبية الجاهلية.. وهذا يتمثل فى قول الله تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليماً﴾ (الفتح: ٢٦).

فهذه الآية الكريمة والحديث الشريف، يرفضان رفضاً قاطعاً، القومية السلبية وفكر العنصرية، لأن الغيرة الإسلامية الإيجابية المقدسة، لا تدع حاجة إليها.

ولقد ظهرت طوال التاريخ أضرار كثيرة نجمت عن القومية السلبية منها:

- أن الأمويين خلطوا شيئاً من القومية السلبية فى سياساتهم، فأسخطوا العالم الإسلامى، فضلاً عما ابتلوا ببلايا كثيرة من جراء الفتن الداخلية.
- كذلك شعوب أوروبا، لما دعوا إلى العنصرية، وأوغلوا فيها فى هذا العصر، نجم العداء التاريخى الملىء بالحوادث المريعة بين الفرنسيين والألمان.. كما أظهر الدمار الرهيب، الذى أحدثته الحرب العالمية، مبلغ

---

(١) ص ٤١٤ من المكتوبات.

الضرر الذى يسببه هذا الفكر السلبى للبشرية.

- كذلك الحال فى تركيا: ففى بداية عهد الحرية (أى إعلان الدستور) تشكلت جمعيات مختلفة للاجئين، وفى المقدمة الروم والأرمن، تحت أسماء أندية كثيرة، وسببت تفرقة القلوب - كما تشتت الأقوام بانهدام برج بابل، وتفرقوا أيدى سبأ فى التاريخ - حتى كان منهم من أصبح لقمة سائغة للأجانب، ومنهم من تردى وضل ضلالاً بعيداً[1].
- أما الآن: فإن التباغض والتنافر بين عناصر الإسلام وقبائله - بسبب من الفكر القومى السلبى - هلاك عظيم، وخطب جسيم.. إذ أن تلك العناصر أحوج ما يكون بعضهم لبعض، لكثرة ما وقع عليهم من ظلم وإجحاف، ولشدة الفقر الذى نزل بهم، ولسيطرة الأجانب عليهم.. كل ذلك يسحقهم سحقا. لذا فإن نظر هؤلاء بعضهم لبعض نظرة العداء، مصيبة كبرى لا توصف، بل إنه جنون أشبه ما يكون بجنون من يهتم بلسع البعوض، ولا يعبأ بالثعابين الماردة التى تحوم حوله.

نعم، إن أطماع أوروبا التى لا تفتر ولا تشبع، هى كالثعابين الضخمة الفاتحة أفواهها للابتلاع.. لذا فإن الاهتمام بهؤلاء الأوروبيين، وتقبل فكرهم العنصرى السلبى، هلاك وأى هلاك وضرر وبيل.

أما القومية الإيجابية: فهى سبب للتعاون والتساند، وتحقق قوة نافعة للمجتمع، وتكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية.. وينبغى أن يكون هذا الفكر الإيجابى القومى خادما للإسلامى، وأن يكون قلعة حصينة له، وسورا منيعاً حوله.. لا أن يحل محل الإسلام، ولابديلا عنه، لأن الأخوة التى يمنحها الإسلام، تتضمن ألوف أنواع الأخوة.. وأى إقامة للقومية بديلاً عن الإسلام، تعتبر جناية خرقاء، أشبه ما يكون بوضع أحجار القلعة فى خزينة الماس، وطرح ما فيها من الماسات خارج القلعة.

---

(١) ص ٤١٥ من المكتوبات.

كيف عالج القرآن السلبية التي تشتت المجتمعات الإسلامية؟

هناك عدة أوامر ونواهي في القرآن الكريم، تحمل معها معاني متعددة، وأهدافا متنوعة، وأبعادا شتى:

- فهي من جهة إشعاعات نورانية، تهدف إلى شفاء أمراض النفس البشرية.
- وهي من جهة أخرى: قوانين إلهية، الغرض منها تصحيح مسار المجتمع الإسلامي، وتوجيهه الوجهة المثلى.
- ومن جهة ثالثة تمثل دساتير ملزمة، لكل من الحاكم والمحكوم، لتحقيق سيادة الشريعة الإسلامية.

ومن تلك الآيات التي تعالج السلبية: في النفس البشرية خاصة، وفي المجتمعات الإسلامية عامة:

- الدعوى إلى الشورى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ (الشورى: ٣٨).. ﴿وشاورهم في الأمر﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ويرى الإمام النورسي [1]: أن مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية، إنما هو "الشورى".. فالشورى هي تلاحق الأفكار بين أبناء الجنس البشري، على مر العصور، وهي مدار رقي البشرية، وأساس علومها.. والشورى هي الوسيلة لفك أنواع القيود، ورفع أنواع الاستبداد عن البشرية، وتحقيق الشهامة الإسلامية.

فالشورى الحق تولد الإخلاص والتساند: إذ أن ثلاث ألفات هكذا (ااا) تصبح مائة وإحدى عشرة.. فكذلك بالإخلاص والتساند الحقيقي، يستطيع ثلاثة أشخاص، أن يفيدوا أمتهم فائدة مائة شخص، بالشورى الشرعية النابعة

---

(١) ص ٥١٤ ، ٥١٥ من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

من حقائق الإيمان.

- **الحرص على الأخوة الإيمانية: ﴿إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ (الحجرات:١٠).**

ويرى الإمام النورسي [١]: أن سبب حرص الإسلام على تحقيق المحبة والإيجابية بين المؤمنين، هو أن المجتمع الإسلامى ككل، أشبه ما يكون بمصنع ذى تروس وآلات عديدة. فإذا ما تعطل ترس من ذلك المصنع، أو تجاوز على رفيقه الترس الآخر، فسيختل حتما نظام المصنع الميكانيكى. لذا فينبغى أن يصرف المسلمون النظر عن تقصيراتهم الشخصية، وليتجاوز كل عن الآخر.

- **محاربة حصر الهمة فى المنفعة الشخصية:**

﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك المفلحون﴾ (الحشر:٩).

ومن وحى هذه الآية الكريمة، يقول الإمام النورسى[٢]:

وهنا أنبه ببالغ الأسى والأسف: إلى أن قسماً من الأجانب، كما سلبوا أموالنا الثمينة وأوطاننا، بثمن بخس دراهم معدودة مزورة، كذلك فقد سلبوا منا قسما من أخلاقنا الرفيعة، وسجايانا الحميدة، والتى بها يترابط مجتمعنا، وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقيهم وتقدمهم، ودفعوا إلينا نظير ذلك رذائل طباعهم وسفاهة أخلاقهم.

فمثلا: إن السجية الملية التى أخذوها منا، هى قول واحد منهم: "إن مت أنا فلتحيا أمتى، فإن لى فيها حياة باقية".. هذه السجية التى هى أقوى أساس وأمتنه لرقيهم وتقدمهم، قد سرقوها منا.. إذ هذه الكلمة إنما تنبع من الدين

(١) ص ٥١٢ من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

(٢) ص ٥١٣ من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

الحق، ومن حقائق الإيمان، فهي لنا وللمؤمنين جميعاً.. بينما دخلت فينا أخلاق رذيلة وسجايا فاسدة، فترى ذلك الأناني الذي فينا يقول: "إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر" و "إن لم أر السعادة فعلى الدنيا العفاء". فهذه الكلمة الحمقاء، إنما تنبع من عدم وجود الدين، ومن عدم معرفة الآخرة، فهي دخيلة علينا تسممنا. ثم إن تلك السجية الغالية، عندما سرت إلى الأجانب، أكسبت كل فرد منهم قيمة عظيمة، حتى كأنه أمة وحده، لأن قيمة الشخص بهمته، فمن كانت همته أمته، فهو بحد ذاته أمة صغيرة قائمة.

وبسبب عدم تيقظ أناس منا، وبحكم أخذنا الأخلاق الفاسدة من الأجانب، فإن هناك من يقول: "نفسي نفسي" مع ما في شريعتنا الإسلامية من سمو وقدسية، حيث تدعو إلى الإيثار والإيجابية.

فالذي يحصر نظره في منافعه الشخصية وحدها، إنما ينسلخ من الإنسانية، ويصبح حيواناً مفترساً، ويبعد بذلك كلية عن الشريعة الإسلامية.

- **الدعوى إلى الوحدة الحقيقية بين المسلمين:**

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ (آل عمران:١٠٣). ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (آل عمران:١٠٤).

وينصح الإمام النورسي المسلمين في الجامع الأموي قائلا[1]: لا يعتذرن أحدكم بالقول: إننا لا نضر أحداً، ولكننا لا نستطيع أن ننفع أحداً أيضاً، فنحن معذورون إذن". فعذركم هذا مرفوض، إذ أن تكاسلكم وعدم مبالاتكم، وتقاعسكم عن العمل، لتحقيق الاتحاد الإسلامي، والوحدة الحقيقية للأمة الإسلامية، إنما هو ضرر بالغ وظلم فاضح.. فكما أن سيئة واحدة تتضاعف إلى الألوف، فإن حسنة واحدة في زماننا هذا - وأعني بالحسنة هنا ما يتعلق بقدسية الإسلام - لا تقتصر فائدتها على فاعلها وحده، بل يمكن أن تتعداه، ليعم نفعها معنويا ملايين المسلمين، ويشد من حياتهم المادية والمعنوية.

(١) ص ٥١١ من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

وعليه: فإن هذا الزمان ليس زمان الانطراح على فراش الكسل، والخلود إلى الراحة، وعدم المبالاة بالمسلمين بترديد: "أنا مالي". إن مصالح الطوائف الصغيرة، وسعادتها الدنيوية والأخروية، ترتبط بالطوائف الكبيرة العظيمة.. ولذلك فإن تكاسل وتخاذل تلك الطوائف، يضران بإخوانهم من الطوائف الصغيرة، أيما ضرر، مما يجعل ذنب التقاعس عظيما، ومسئوليته خطيرة أمام الله.

وهكذا فإن السلبية مرفوضة كلية، بكل مفاهيم الشريعة ومحدداتها، وكل آيات القرآن وأهدافها.. ونعبر عن إيجابية الإسلام المطلقة في قول الحبيب المصطفى ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»** رواه البخاري.

وننتقل الآن إلى مرض جديد، وعلاج أكيد، من صيدلية القرآن، التي فيها دواء لكل داء تعاني منه النفوس البشرية.

المشكلة النفسية الحادية عشر

اليأس وانحطاط الهمة

إن اليأس من الأمراض القاتلة للنفس البشرية، وهو أشد ما تحاربه الشريعة الإسلامية، لأن الحياة حركة وفعالية، والشوق جوادها، وهو مطية الهمة، لنشد معالي الأمور، في ميادين معركة الحياة. أما اليأس فهو العدو الألد، الذي يفت من قوة الهمة [1].. ولذلك فقد جعله الله من صفات الكافرين، حيث لا يأس مع الإيمان، ولا إيمان مع اليأس، ويظهر هذا واضحاً في الآية الكريمة: **﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** (يوسف: ٨٧).

---

(١) ص ٤٣٣ من صيقل الإسلام (المناظرات).

ويرى الإمام النورسى: أن اليأس يعرض الإنسان لأن تتخطفه الشياطين فى أودية مهلكة، وذلك إذا وصل حدوداً بعيدة فى الخوف من العذاب، لدرجة تؤدى به إلى اليأس والإحباط.. فيقول[١]: اعلم أنك إذا تدهشت من العذاب، ما وفقت للعمل. تتمنى عدم العذاب، فتتحرى ما ينافيه، فترى الإمارات المنافية براهين، فتتخطفك الشياطين.. فاستمع بقلب شهيد إلى قوله تعالى: ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ (الزمر:٥٣).

ويقول الإمام النورسى تحت عنوان:

اليأس داء قاتل[٢]:

إن مما أملت على تجاربى فى الحياة، وتمخض عنه فكرى هو: أن اليأس داء قاتل، وقد دب فى صميم قلب العالم الإسلامى.. فهذا اليأس هو الذى أوقعنا صرعى كالأموات، حتى تمكنت دولة غربية، لا يبلغ تعدادها مليونى نسمة، من التحكم فى دولة شرقية مسلمة، ذات العشرين مليون نسمة، فتستعمرها وتسخرها فى خدمتها.

وهذا اليأس هو الذى قتل فينا الخصال الحميدة، وصرف أنظارنا عن النفع العام، وحصرها فى المنافع الشخصية.. وهذا اليأس هو الذى أمات فينا الروح المعنوية، التى بها استطاع المسلمون أن يبسطوا سلطانهم على مشارق الأرض ومغاربها، بقوة ضئيلة.. ولكن ما إن ماتت تلك القوة المعنوية الخارقة باليأس، حتى تمكن الأجانب الظلمة – منذ أربعة قرون – أن يتحكموا فى ثلاثمائة مليون مسلم، ويكبلوهم بالأغلال.

بل قد أصبح الواحد، بسبب هذا اليأس، يتخذ من فتور الآخرين، وعدم

---

(١) ص ١٢٦ من المثنوى العربى النورى (قطرة).

(٢) ص ٥٠٥ من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

مبالاتهم، ذريعة للتملص من المسئولية، ويخلد إلى الكسل قائلاً: "مالي وللناس، فكل الناس خائرون مثلي.. فيتخلى عن الشهامة الإيمانية، ويترك العمل الجاد للإسلام.

فما دام هذا الداء قد فتك فينا إلى هذا الحد، ويقتلنا على مرأى منا، فنحن عازمون على أن نقتص من قاتلنا، فنضرب ذلك اليأس بسيف الآية الكريمة: **﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ (الزمر: ٥٣)**.

ونقصم ظهره بحقيقة الحديث الشريف: **«ما لا يدرك كله لا يترك جله»**.

إن اليأس داء عضال للأمم والشعوب، أشبه ما يكون بالسرطان.. وهو المانع عن بلوغ الكمالات.. والمخالف لروح الحديث القدسي الشريف: **«أنا عند ظن عبدي بي»**.. وهو شأن الجبناء والسفلة والعاجزين، وذريعتهم، وليس هو من شأن الشهامة الإسلامية قط... وليس هو من شأن العرب الممتازين بسجايا حميدة، هي مفخرة البشرية. فلقد تعلم العالم الإسلامي من ثبات العرب وصمودهم الدروس والعبر. وأملنا بالله عظيم أن يتخلى العرب عن اليأس، ويمدوا يد العون والوفاق الصادق إلى الترك، فيرفعوا معا راية القرآن عالية خفاقة، في أرجاء العالم إن شاء الله.

كيف عالج القرآن اليأس وانحطاط الهمة؟

إن اليأس ينتج غالبا عن الوقوع في شراك ظلمات الغفلة، والابتلاء بأغلال الضلالة القاتلة.. حيث ترى النفس الزمن الماضي، كمقبرة عظيمة في ظلمات العدم، وتتصور الزمن المستقبل موحشاً، تعبث فيه الدواهي والخطوب، وتتصور جميع الحوادث والموجودات – التي كل منها موظفة مسخرة من لدن رب رحيم حكيم، كأنها وحوش كاسرة وفواتك ضارية[1].

(١) ص ٣٥١ من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

وهنا يعالج القرآن اليأس في محورين رئيسيين

• المحور الأول: الآيات التي تدعو إلى التوحيد، مما يبعث الأمل والأمان في القلوب[١]: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ۞ له مقاليد السماوات والأرض﴾ (الزمر: ٦٢-٦٣). ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ (الأحزاب: ٣). ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ (يونس: ٥٨). ﴿فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ (الروم: ٥٠).

فالإيمان إذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين، ويبعد اليأس عن الإنسان، ويرتفع به إلى أعلى عليين، بما يمده من قوة الإيمان.. أما إذا ترك الإنسان التوكل، فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل ستجذبه تلك الأثقال إلى أسفل سافلين[٢].

والإيمان نور: فإذا استقر نور الإيمان في هذا الإنسان، لبين ذلك النور جميع ما على الإنسان من نقوش حكيمة، فيقرأها المؤمن بتفكر، ويشعر بها في نفسه شعوراً كاملاً، ويجعل الآخرين يطالعونها ويتملونها.. أي كأنه يقول: ها أنا ذا مصنوع الصانع الجليل ومخلوقه، انظروا كيف تتجلى فيَّ رحمته وكرمه"[٣].. وتصطبغ الكائنات في نظره بالنور الإلهي...

فليس الزمن الغابر كما يتوهم اليائس مقبرة عظمى، بل يشهد ببصيرة القلب، كل عصر من العصور الماضية زاخر بوظائف عبودية تحت قيادة نبي مرسل، أو طائفة من الأولياء الصالحين.. ويخترق حجب المستقبل، فيرى الموت مقدمة لحياة أبدية، ويرى القبر باب سعادة خالدة.. ويتيقن أن كل حادثة من حوادث الكون – كالأعاصير والزلازل والطاعون وأمثالها –

---

(١) يمكن الرجوع إلى "اثنتا عشرة لمعة حول التوحيد الحقيقي" ص ٣٢٥ : ٣٤٧ من الكلمات.

(٢) ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ من الكلمات.

(٣) ص ٣٤٩ من الكلمات.

إنما هى مسخرات موظفات مأمورات، ويرى أن عواصف الربيع والمطر، وأمثالها من الحوادث التى تبدو حزينة سمجة، ما هى فى الحقيقة والمعنى، إلا مدار الحكم اللطيفة[1].

وهكذا تتحرر النفس البشرية من كل دواعى اليأس الذى يقوض أركانها.

• المحور الثانى: استنهاض الهمة إلى أقصى مدى:

إن إحساس الإنسان باليأس، ينتج أيضا من انحطاط الهمة، والانشغال بسفاسف الأمور.. حيث يستغل الشيطان حب الراحة والدعة لدى الإنسان، فيصرفه عن الإيمان بدسائس ومكايد خبيثة، تصيبه بالغفلة وانحطاط الهمة، فيقعده عن معالى الأمور، ويقذف به فى هاوية السفالة والذلة[2].

لذلك فقد جعل القرآن للعمل منزلة مقدسة سامية، واستحث الإنسان أن يسعى فى الأرض لاستنطاق أسرارها، واستخراج خيراتها، لأن إعلاء كلمة الله فى الأرض، يتوقف على الرقى المادى[3]. فقال تعالى: **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (التوبة: ١٠٥). ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ (النجم: ٣٩).**

ويخاطب الإمام النورسى ذوى الهمة الضعيفة فى السعى والعمل، مما يؤدى بهم إلى الملل واليأس فيقول[4]:

يا من لا يدرك مدى اللذة والسعادة فى السعى والعمل.. أيها الكسلان، اعلم أن الحق تبارك وتعالى قد أدرج لكمال كرمه، جزاء الخدمة فى الخدمة نفسها، وأدمج ثواب العمل فى العمل نفسه.

ولأجل هذا: كانت الموجودات قاطبة، تمتثل الأوامر الربانية بشوق

(١) ص ٣٥٢ من الكلمات.

(٢) ص ٥٥٢ من المكتوبات، ص ٤٣٤ من صيقل الإسلام.

(٣) ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ من صيقل الإسلام (المناظرات).

(٤) ص ١٨٨ : ١٩١ من اللمعات (اللمعة السابعة عشرة).

كامل، وبنوع من اللذة، عند أدائها لوظائفها الخاصة بها، والتى يطلق عليها "الأوامر التكوينية" فكل شيء: ابتداء من النحل والنمل والطير.. وانتهاء إلى الشمس والقمر، كل منها يسعى بلذة تامة فى أداء مهماتها.. أى: اللذة كامنة فى ثنايا وظائف الموجودات، حيث أنها تقوم بها على وجه من الإتقان التام، برغم أنها لا تعقل ما تفعل، ولا تدرك نتائج ما تعمل.

- فتأمل فى وظائف أعضائك وحواسك: تر أن كلا منها يجد لذائذ متنوعة، أثناء قيامه بمهامه، فى سبيل بقاء الشخص أو النوع.. فالخدمة نفسها، والوظيفة عينها، تكون بمثابة ضرب من التلذذ والمتعة بالنسبة لها.. بل يكون ترك الوظيفة والعمل، عذابا مؤلما لذلك العضو.
- وهناك دليل ظاهر آخر هو: أن الديك مثلاً، يؤثر الدجاجات على نفسه، فيترك ما يلتقطه من حبوب رزقه إليهن، دون أن يأكل منها.. ويشاهد أنه يقوم بهذه المهمة ، وهو فى غاية الشوق، وعز الافتخار، وذروة اللذة.. فهناك إذن لذة فى تلك الخدمة، أعظم من لذة الأكل نفسه.
- وكذا الحال مع الدجاجة - الراعية لأفراخها - فهى تؤثرها على نفسها. إذ تدع نفسها جائعة فى سبيل إشباع الصغار، بل تضحى بنفسها فى سبيل الأفراخ، فتهاجم الكلب المغير عليها، لأجل الحفاظ على الصغار.. ففى الخدمة إذن لذة تفوق مرارة الجوع، وترجح على ألم الموت.
- والنباتات والأشجار تمتثل أوامر فاطرها الجليل، بما يشعر أن فى عملها شوقا ولذة، لأن ما تنشره من روائح طيبة، وما تتزين به من زينة فاخرة، تستهوى الأنظار، وما تقدمه من تضحيات وفداء، حتى الرمق الأخير، لأجل سنابلها وثمارها.. كل ذلك يعلن لأهل الفطنة: أن النباتات تجد لذة فائقة فى امتثالها الأوامر، بما يفوق أية لذة أخرى، حتى أنها تمحو نفسها وتهلكها، لأجل تلك اللذة.. ألا ترى شجرة جوز الهند، وشجرة التين، كيف تطعم ثمرتها لبنا خالصاً، تطلبه من خزينة الرحمة الإلهية بلسان حالها، وتتسلمه منها، وتظل هى لا تطعم نفسها غير

الطين. وشجرة الرمان تسقى ثمرتها شراباً صافياً، وهبها لها ربها، وهى ترضى قانعة بشراب ماء عكر. حتى أنك ترى ذلك فى الحبوب: فهى تظهر شوقاً هائلاً للتسنبل، بمثل اشتياق السجين إلى رحب الحياة.

ومن هذا السر الجارى فى الكائنات المسمى بـ "سنة الله".. ومن هذا الدستور العظيم: يكون العاطل الكسلان الطريح على فراش الراحة، أشقى حالاً وأضيق صدراً، من الساعى المجد.. ذلك لأن العاطل يكون شاكياً من عمره، يريد أن يمضى بسرعة فى اللهو والمرح.. بينما الساعى المجد شاكر لله وحامد له، لا يريد أن يمضى عمره سدى.

لذا أصبح دستوراً عاماً فى الحياة: "المستريح العاطل شاك من عمره، والساعى المجد شاكر". وذهب مثلاً: "الراحة مندمجة فى الزحمة، والزحمة مندمجة فى الراحة". وهنا يتبين سر الآية العظيمة التى جعلت السعى فى الحياة، مدعاة لذهاب دواعى اليأس.. وذلك فى أمر نبى الله يعقوب عليه السلام لبنيه ألا يستسلموا لليأس، ويسعوا فى البلاد بحثا عن يوسف وأخيه: ﴿يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (يوسف: ٨٧).

وبهذا نكون قد تعرضنا لأقل القليل من خزائن الرحمة الإلهية، والإشعاعات النورانية، فى مداواة اليأس، الذى يحطم كيان النفس البشرية.. ونترك لبصيرة المؤمن أن تستكشف جوانب القرآن، وتستخرج منه الكنوز واللآلئ، التى تشرح الصدور والقلوب، وتجليها مما ران عليها من ظلمات الغفلة، التى تسبب اليأس وانحطاط الهمة.

المشكلة النفسية الثانية عشر

حب التقليد ونتائجه فى ضياع النفس

إن حب التقليد مرض نفسى خطير، يؤدى إلى ضياع الهوية، ومعالم الشخصية. وهو من الأسباب التى ألقت الأمة الإسلامية فى غياهب الضياع، وأقعدتها عن معالى الأمور - كما يرى ذلك الإمام النورسى[١] - لأنه يقصم ظهر الهمة، ويؤدى إلى فقدان الثقة بالنفس، وضياع مواهب العقل، ونور القلب، ويلقى بالإنسان فى ظلمات الضلالة العمياء.

وهنا يثور السؤال التالى:

لماذا يعتبر التقليد مرضاً نفسياً خطيراً؟

ويجيب على ذلك السؤال الإمام النورسى، ناهياً نفسه عن التقليد، فيقول[٢]: أيتها النفس! لا تقلدى أهل الدنيا، ولاسيما أهل السفاهة، وأهل الكفر خاصة، منخدعة بزينتهم الظاهرية الصورية، ولذائذهم الخادعة غير المشروعة.. لأنك بالتقليد لا تكونين مثلهم قطعاً، بل تتردين كثيراً جداً.. ولن تكونى حتى حيواناً أيضا، لأن العقل الذى فى رأسك، يصبح آلة مشئومة مزعجة، تنزل بمطارقها على رأسك.

وإليك تفسير ذلك: إذا كان ثمة قصر فخم، فيه مصباح كهربائى عظيم، تشعبت منه قوة الكهرباء إلى مصابيح أصغر فأصغر، موزعة فى منازل صغيرة، مرتبطة كلها بالمصباح الرئيسى. فلو أطفأ أحدهم المصباح الكهربائى الكبير، فسيعم الظلام المنازل الأخرى كلها، وتستولى الوحشة فيها.

---

(١) ص ٦٣٥ من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

(٢) ص ٦٣٥ من الكلمات (الكلمة الثالثة والعشرون).

ولكن إذا كان هناك مصابيح فى قصور أخرى، غير مربوطة بالمصباح الكبير فى القصر الفخم، فإن صاحب هذا القصر، إن أطفأ المصباح الكهربانى الكبير، فإن مصابيح أخرى تعمل على الإضاءة فى القصور الأخرى، ويمكنه أن يؤدى بها عمله، فلا يستطيع اللصوص نهب شىء منه.

فيا نفسى!

القصر الأول: هو المسلم.. والمصباح الكبير هو سيدنا الرسول ﷺ فى قلب ذلك المسلم.. فإن نسيه بالتقليد، وأخرج الإيمان به من قلبه - والعياذ بالله - فلا يؤمن بعد بأى نبى آخر.. بل لا يبقى موضع للكمالات فى روحه، بل ينسى ربه الجليل.. ويكون ما أدرج فى ماهيته من منازل ولطائف، طعمة للظلام، ويحدث فى قلبه دماراً رهيباً، وتستولى عليه الوحشة.

تُرى ما الذى يغنى عن هذا الدمار الرهيب، وما النفع الذى يكسبه حتى يستطيع أن يعمر ذلك الدمار والوحشة؟!

أما الأجانب: فإنهم يشبهون القصر الثانى، بحيث لو أخرجوا نور محمد ﷺ من قلوبهم، تظل لديهم أنوار - بالنسبة لهم - أو يظنون أنها تظل، إذ يمكن أن يبقى لديهم شىء من العقيدة بالله، والإيمان بموسى وعيسى - عليهما السلام - والذى هو محور كمال أخلاقياتهم.

فيا نفسى الأمارة بالسوء!

إذا قلت: أنا لا أريد أن أكون أجنبيا بل حيواناً، فلقد كررنا عليك القول يا نفسى! إنك لن تكونى حتى كالحيوان، لأنك تملكين عقلاً. فهذا العقل - الجامع لآلام الماضى، ومخاوف المستقبل، سينزل ضربات موجعة، وصفعات مؤلمة، برأسك وعينيك، فيذيقك ألوف الآلاف فى ثنايا لذة واحدة، بينما الحيوان يستمتع بلذة غير مشوبة بالآلام.. لذا إن أردت أن تكونى حيواناً: فتخلى عن عقلك أولا وارميه بعيدا، وتعرضى إلى صفعة التأديب فى الآية الكريمة: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا

يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (الأعراف: ١٧٩).

هل التقليد ضرورة تفرضها ظروف العصر؟

إن التقليد مرض نفسي، متواجد في كل العصور، نتيجة حب الشهوات، والركون إلى الحياة الدنيا، وعجز الهمم عن التطلع إلى المعاني والقيم النبيلة، والأهداف السامية.. وقد نبأنا بذلك العليم الخبير في قرآنه الكريم، وهو يخاطب رسوله الحبيب ﷺ.. فقال تعالى[١]: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير ۞ إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ۞ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ۞ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ۞ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (الزخرف: ٢٣-٢٥).

ويجيب الإمام النورسي على ادعاء (أن التقليد ضرورة تفرضها ظروف العصر) بالرفض، ويعيب على من يدعو المسلمين إلى تقليد الأجانب فيقول[٢]:

♦ يا من يحث المسلمين ويشوقهم على حطام الدنيا، ويسوقهم قسرا إلى صنائع الأجانب، والتمسك بأذيال رقيهم.. ويا من يدعي الحمية، أيها الشقي! تمهل وتأمل، واحذر من انقطاع عرى الدين، لبعض أفراد هذه الأمة، وانفصام روابطهم معه.. لأنه إذا انقطعت تلك الروابط لدى البعض، تحت سطوة مطارق التقليد الأعمى، والسلوك الأرعن، فسيكونون ملحدين مضرين بالمجتمع، مفسدين للحياة الاجتماعية كالسم القاتل.. إذ المرتد سم زعاف

---

(١) الآيات التي تتكلم عن حب التقليد عند النفوس الضعيفة كثيرة جداً منها: (المائدة: ١٠٤) - (الأعراف: ٢٨) - (يونس: ٧٨) - (الأنبياء: ٥٣) - (الشعراء: ٧٤) - (لقمان: ٢١) - (الزخرف: ٢٢).

(٢) اللمعات ص ١٨٦ : ١٨٨ (اللمعة السابعة عشرة) - وكذلك يمكن الرجوع إلى المثنوي العربي النوري ص ٢٧٣ ، ٢٧٦.

للمجتمع، حيث قد فسد وجدانه وتعفنت طويته كليا.. ومن هنا ورد في علم الأصول: "المرتد لا حق له في الحياة، خلافاً للكافر الذمي، أو المعاهد، فإن له حقا في الحياة".. لذا فإن شهادة الكافر من أهل الذمة مقبولة عند الأحناف، بينما الفاسق مردود الشهادة لأنه خائن.

أيها الفاسد الشقي! لا تغتر بكثرة الفساق، ولا تقل إن أفكار أكثرية الناس تساندني وتؤيدني، ذلك لأنه لم يدخل الفسق فاسق برغبة فيه، وطلبا بذات الفسق، بل وقع فيه، ولا يستطيع الخروج منه، إذ ما من فاسق إلا ويتمنى أن يكون تقيا صالحاً، وأن يكون رئيسه وآمره ذا دين وصلاح، اللهم إلا من أشرب قلبه بالردة – والعياذ بالله – ففسد وجدانه بها، وأصبح يلتذ بلدغ الآخرين، وإيذائهم كالحية.

وهكذا فإن الأجانب لا يملكون من حقائق الحياة، ما يستحق أن يقلدهم المسلمون فيها، ومن يقلدهم يكون كمن استبدل الألماس بقطع زجاجية تافهة، ولم ينصت إلى قول الحق ﷻ: **﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ (التوبة: ٥٥).**

◆ أيها العقل الأبله والقلب الفاسد! أتظن أن المسلمين لا يرغبون في الدنيا، ولا يفكرون فيها، حتى أصبحوا فقراء معدمين، فتراهم بحاجة إلى من يوقظهم من رقدتهم، كيلا ينسوا نصيبهم من الدنيا، ويقلدوا الأجانب؟ كلا.. إن ظنك خطأ.. بل لقد اشتد الحرص، فهم يقعون في الفقر وشباك الحرمان، نتيجة الحرص، إذ الحرص للمؤمن سبب الخيبة وقائد الحرمان والسفالة.. ولذلك قال الحق جل وعلا: **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (الحشر: ٩، التغابن: ١٦).**

نعم، إن الأسباب الداعية إلى الدنيا كثيرة، والوسائل السائقة إليها وفيرة، وفي مقدمتها ما يحمله كل إنسان من نفس أمارة بالسوء، وما يكمن فيه من هوى وحاجة، وحواس ومشاعر، وشيطان عدو.. فضلاً عن أقران السوء من أمثالك، وحلاوة العاجلة ولذتها.. وغيرها من الدعاة إليها كثير.. بينما الدعاة

إلى الآخرة، وهى الخالدة، والمرشدون إلـى الحياة الأبدية قليلـون. فـإن كـان لديك ذرة من الحمية والشهامة تجاه هذه الأمة، وإن كنت صادقاً فـى دعـواك إلى التضحية والفداء والإيثار.. فعليك بمد يد المسـاعدة إلى أولئـك القلـة مـن الداعين إلى الحياة الباقيـة.. وإلا فـإن عـاونت الكثرة بـالتقليد، وكممـت أفـواه أولئك الدعاة القلة، فقد أصبحت للشيطان قريناً، وساء قريناً.

♦ أيها الداعى إلى تقليد الأجانب: أتظن أن فقرنـا نـاجم مـن زهـد الديـن، أو من كسل ناشئ من ترك الدنيا؟ إنك مخطئ فى ظنك أشد الخطأ.. ألا ترى أن المجوس والبراهمة فـى الصيـن والهنـد، والزنـوج فـى أفريقيـا، وأمثـالهم مـن الشعوب المغلوبة على أمرها، والواقعة تحت سطوة أوروبـا، هـم أفقـر منـا حالاً؟!

أو لا ترى أنه لا يبقى بأيدى المسلمين سوى ما يسد رمقهم، ويقيم أودهم، حيث يغتصبه كفـار أوروبـا، الظـالمون منهم، أو يسرقه منـافقو آسيا، بمـا يحيكون من دسائس خبيثة.

♦ إن كانت غايتكم من سوق المؤمنين قسـرا إلـى المدنيـة، التـى هـى الدنيـة (أى بلا ميم) تسهيلاً لإدارة دفـة النظـام، وبسـط الأمـن فـى ربـوع المملكـة.. فـاعلموا جيداً أنكم علـى خطـأ جسيم، إذ تسوقون الأمـة إلـى هاويـة طريـق فاسد.. لأن إدارة مائة من الفاسقين الفاسدين أخلاقياً، والمرتابين فى اعتقـادهم وإيمانهم، وجعل الأمن والنظام يسود فيما بينهم، لهو أصعب بكثير، من إدارة ألوف من الصـالحين المتقين، ونشر الأمن فيما بينهم.

♦ وبناء على ما تقدم مـن الأسـس: فليس المسـلمون بحاجـة إلـى ترغيبهـم وحثهم على حـب الدنيـا والحـرص عليهـا، بتقليد الأجـانب، والتمسـك بأذيـال رقيهم.. فلا يحصل الرقى والتقدم، ولا ينتشر الأمن والنظام فـى ربـوع البـلاد بهذا الأسلوب.. **بل هم بحاجة إلى تنظيم مساعيهم، وبث الثقـة فيمـا بينهـم، وتسهيل وسائط التعاون فيما بينهم**.. ولا تتم هذه الأمور إلا باتبـاع الأوامـر المقدسة فى الدين، والثبات عليها، مع التزام التقوى من الله سبحانه وابتغـاء

مرضاته.

مخاطر تقليد الأجانب في العصر الحاضر:

إن تقليد الأجانب سبب جروحاً واسعة غائرة، في القلب العام للمسلمين، وسبب انحراف الأفكار العامة، بالوسائل المفسدة التي هيئت لها، واتجاه الوجدان العام نحو الفساد، نتيجة تحطم الأسس الإسلامية وتياراته وشعائره، التي هي المستند العظيم للجميع، ولاسيما عوام المؤمنين (١).

وتظهر تلك التخريبات الكلية الرهيبة، والشقوق الواسعة، والجروح الغائرة فيما يلي:

- غلو المسلمين في السذاجة، وتسامحهم وتجاوزهم عن خطيئات جناة رهيبين: إذ لو رأى أحدهم حسنة واحدة من شخص، ارتكب ألوف السيئات، وتعدى على حقوق ألوف العباد (سواء المعنوية أو المادية) ينحاز إلى ذلك الظالم، لأجل تلك الحسنة الواحدة.. وبهذه الصورة يشكل أهل الضلالة والطغيان الأكثرية العظمى من الناس، رغم أنهم قلة قليلة جداً، وذلك لموالاة أولئك السذج لهم.. ولأجله ينزل القدر الإلهي المصيبة العامة، التي تترتب وتتبنى على خطأ الأكثرية، بل إن عملهم هذا يعين على دوام المصيبة واستمرارها، بل على شدتها.

نعم، إن التجاوز عن السيئات والعفو والصفح، إنما يكون عن حقوق الشخص نفسه. أي له أن يعفو ويصفح عمن تعدى على حقوقه، وليس له العفو والسماح عن الذي يهضم حقوق الآخرين، من الجناة والطغاة، إذ يكون شريكا معهم في ظلمهم(٢).

- إن من يولي اهتماما بالغاً في الوقت الحاضر، بالصراعات الدائرة في

---

(١) ص ١١٨ من الملاحق (ملحق قسطموني).

(٢) ص ١١٦ من الملاحق.

الكرة الأرضية، ويتابعها بلهفة وفضول، تلحقه أضرار مادية ومعنوية كثيرة جداً: فهو إما يشتت عقله، ويصبح أبلها، روحاً ومعنى، وإما يشتت قلبه، فيكون ملحداً، روحاً ومعنى، وإما يشتت فكره، فيغدو أجنبيا، روحاً ومعنى(١).

ولقد شاهدت رجلاً من العوام، صاحب تقوى ودين، وآخر ينتسب إلى العلم، قد حزن حزناً لحد البكاء، لانهزام كافر عدو للإسلام، وفي الوقت نفسه سُر سروراً بالغاً، من تقهقر جماعة السادة من أهل البيت، تجاه كافر عنيد.. أليس هذا أعجب مثال للجنون وتشتت العقل؟ أن يفضل رجل عامي يتعلق عقله بدائرة السياسة الواسعة، كافرا عدوا للإسلام، على مجاهد سيد من أهل البيت؟

نعم، إن مسائل السياسة تتعلق - إلى حد ما - بوظيفة العاملين في الشئون الخارجية، وأركان الحرب في الجيش، والقادة المسئولين.. أما دفع تلك المسائل إلى رجل عامي ساذج، وإثارته بها، وصرفه عما يلزمه من وظائف، تجاه شئون روحه وأمور دينه، بل حتى تجاه شئونه الشخصية بالذات، ولوازم بيته وقريته، ومن ثم جعله بهذا التلهف والفضول، سائب الروح، ثرثار العقل، فاقداً لأذواق القلب نحو الحقائق الإيمانية والإسلامية، خائر الشوق إليها.. وكذا إثارتهم بتلك الاهتمامات التافهة، التي تقتل قلوبهم معنى، لأنها تهيئ الجو الملائم للإلحاد.. كل ذلك ضرر بالغ للحياة الاجتماعية الإسلامية، مما يعود بنتائج وخيمة عليها.

• إن تقليد الأجانب وموالاتهم: أدى إلى التعاطف معهم والدعاء لهم، رحمة بهم وعطفا عليهم، رغم أنهم يبيدون حياة ألوف المسلمين الأبدية ويمحونها، ويسوقون مئات المؤمنين إلى سوء العاقبة، بدفعهم إلى ارتكاب الذنوب والخطايا.. وهذا ظلم عظيم، وإنكار لقسم كبير من القرآن الكريم، لأن حماية

(١) ص ١١٩، ١٢٠ من الملاحق.

الوحوش الكاسرة والعطف عليها -وهى التى تمزق الحيوانات البريئة- يعتبر غدر عظيم تجاه تلك الحيوانات البريئة، ووحشية بالغة نابعة من فقدان الضمير والوجدان. وكذلك فإن التعاطف مع الكفار والمنافقين، يعتبر ظلما شديدا وغدرا شنيعا، تجاه أولئك المؤمنين المظلومين [١].. فيجب فى خضم تلك التيارات الرهيبة، والحوادث المزلزلة للحياة والعالم، أن يكون المؤمنون على ثبات وصلابة، لا تحد بحدود، وضبط للنفس لا نهاية له، واستعداد دون حدود للتضحية.. ولا يكونون ممن يفضلون الحياة الدنيا على الآخرة، بسيطرة دوافع الحس العمياء، التى لا تبصر العقبى، وترجيح درهم من لذة آنية حاضرة على رطل من لذات صافية آجلة.. فهذا مرض مخيف أصاب هذا العصر، بل هو مصيبة من مصائبه وبلية من بلاياه، وهو موالاة أهل الضلالة[٢].. وهو يدخل فى التحذير الإلهى: **﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ (المجادلة: ٢٢)**.

• إن تقليد الأجانب يودى مع الوقت، إلى وقوع ضعفاء الجيل المقبل، فى مخالب الضلالة المطلقة، حيث تقودهم نفوسهم الأمارة بالسوء، إلى فوضى ضاربة أطنابها.. فالمسلم الذى يحل ربقته من الدين، ليس أمامه إلا الضلالة المطلقة، فيصبح فوضويا إرهابيا، ولا يمكن دفعه إلى الولاء، بالإدارة والنظام[٣].

إذ أن أهل الضلالة المغيرين على أهل الإيمان، يصبحون روحاً خبيثة تسرى فى الأمة، وشخصية معنوية حاملة لروح الجماعة والتنظيم الخاص، تفسد وجدان الناس وقلوبهم عامة فى العالم الإسلامى، وتمزق الستار الإسلامى السامى، الذى يحيى العقائد التقليدية، لدى عوام المسلمين، وتحرق المشاعر المتوارثة أبا عن جد، تلك المشاعر التى تديم الحياة الإيمانية.

---

(١) ص ١٢٣، ١٢٤ من الملاحق (ملحق قسطمونى).

(٢) ص ٢٠٠، ٢٠١ من الملاحق (ملحق قسطمونى).

(٣) ص ٢٣٤ من الملاحق (ملحق أمير داغ-١).

لذلك ومن أجل الأخطار التى استعرضناها، فيجب على المسلم أن يتحرر من التقليد، لأن له نقطة استناد عظيمة وركيزة لا تتزعزع قط، وهى الإيمان بالله، الذى يمده بالشخصية المستقلة، والقوة المعنوية الكاملة[١].

علاج القرآن لداء التقليد:

نظراً لأن داء التقليد مغروز فى النفس البشرية، فقد عالجه القرآن بحكمة بالغة على مستويين رئيسيين:

أولهما: صقل الشخصية الإسلامية إلى أبعد مدى.

ثانيهما: فرض القدوة الحسنة الواجب اتباعها.

بالنسبة للنقطة الأولى: صقل الشخصية الإسلامية إلى أبعد مدى:

- يزخر القرآن بالأوامر والنواهى والمعانى، التى تهدف إلى صقل شخصية المسلم، وحفز همته إلى معالى الأمور، وكيف أنه مسئول مسئولية شخصية عن أعماله التكليفية، وأنه مسئول عن تسخير السمع والبصر والفؤاد، فى اكتشاف أسرار الله فى الكون، وأن الله كزمه بالفهم والعقل والإرادة، لتكون له شخصيته المتميزة، وخطواته الراسخة، ووعيه الناضج، ليتحدى التقليد بالحقيقة الشاهقة[٢]: **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ (المائدة: ١٠٥).**

- وهناك نهى واضح عن تقليد أهواء الكسالى والمتخلفين، لأن ذلك يقصم ظهر الهمة، ويورد مسالك الضلال والانحراف عن الجادة. فقال ﷻ: **﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ (المائدة: ٧٧).**

---

(١) ص ٢٢٢ من الملاحق (ملحق لسطمونى).

(٢) ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ من صيقل الإسلام (المناظرات).

• إن أوائل أكثر الآيات القرآنية وخواتمها، تحيل الإنسان إلى العقل قائلة: راجع عقلك وفكرك أيها الإنسان وشاورهما: "فاعلموا.. أفلا يعقلون.. أفلا يتدبرون.. أفلا يتذكرون" وأمثالها من الآيات التي تخاطب العقل البشرى، حتى يتبع البرهان، ويبعد عن التقليد، الذى يعصب العيون، ويعمى عن رؤية الحق.. فالإسلام يهدف من البشرية، أن تتحلى بأسمى ما يليق بالإنسانية، من درجات الكمال والتشوق والتطلع إليها.. ويرفض مداهنة المستبدين وتقليد المنحرفين، لأن هذا لا يحقق العزة الإسلامية التى تعلن إعلاء كلمة الله[1].

• يغرس القرآن فى وجدان المسلم: أن ما يخدع أهل الضلالة فى هذا العصر العجيب، ويجعلهم سكارى ثملين، هو أن ما يتلذذونه من أوضاع فانية، لذة ظاهرية، هو فى الحقيقة فى منتهى الألم، وبالتالي فكل شىء معدوم لأهل الضلالة، سوى الحال الحاضرة.. فكيف يقلدهم أهل الإيمان وبإمكانهم أن يتلذذوا لذة علوية، فى نفس الموضع من تلك الأمور، والأوضاع الفانية.. فمادام الله موجودا، فكل شىء موجود إذن. ومن كان لله تعالى، كان له كل شىء، ومن لم يكن له، كان عليه كل شىء، فكل شىء معدوم له[2].. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ (النور: ٣٩).

بالنسبة للنقطة الثانية: فرض القدوة الحسنة الواجب اتباعها:

إن الحكيم الخبير الذى يعلم ميل النفس البشرية إلى التقليد، قد وضع لها نماذج سامية، تكون قدوة حسنة، ترتقى بتلك النفس إلى معارج الكمال. فقال تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه﴾ (الممتحنة: ٤). ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا

(١) ص ٤٩٥ : ٥٠٠ من صيقل الإسلام.

(٢) ص ١٤٤ من الملاحق.

عليا﴾ (مريم: ٥٤-٥٧).

وهناك قدوة واجبة الاتباع، لأن هذا من مستلزمات الإيمان، وهو الرسول الحبيب ﷺ. حيث يقول المولى ﷻ: **﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾** (الأحزاب: ٢١).

وجعل الله اتباع الحبيب المصطفى، والاقتداء بسنته المطهرة، هو الطريق للمقصد الأسنى، أى يكون الإنسان أهلا لمحبة الله.. فقال تعالى: **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾** (آل عمران: ٣١).

ويرى الإمام النورسى: أن اتباع السنة، هو ترياق مرض البدعة. ويستشهد فى ذلك بقول الرسول ﷺ: **«من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله أجر مائة شهيد»** (أخرجه الطبرانى فى الكبير).

ويقول[1]: إن اتباع السنة المطهرة لهو حتما ذو قيمة عالية، ولا سيما اتباعها عند استيلاء البدع وغلبتها، فإن له قيمة أعلى وأسمى، وبالأخص عند فساد الأمة، إذ تشعر مراعاة أبسط الآداب النبوية بتقوى عظيمة، وإيمان قوى راسخ، ذلك لأن الاتباع المباشر للسنة المطهرة، يذكر بالرسول الأعظم ﷺ.. فهذا التذكر الناشئ من ذلك الاتباع، ينقلب إلى استحضار الرقابة الإلهية، بل تتحول فى الدقائق التى تراعى فيها السنة الشريفة، أبسط المعاملات العرفية، والتصرفات الفطرية -كآداب الأكل والشرب والنوم وغيرها - إلى عمل شرعى وعبادة مثاب عليها. لأن الإنسان يلاحظ بذلك العمل المعتاد، اتباع الرسول ﷺ فيتصور أنه يقوم بأدب من آداب الشريعة، ويتذكر أنه ﷺ صاحب الشريعة، ومن ثم يتوجه قلبه إلى الشارع الحقيقى، وهو الله سبحانه وتعالى، فيغنم سكينة واطمئنانا، ونوعا من العبادة.

وهكذا فإن تقليد الرسول وأنبياء الله؛ يقود إلى الأمن والأمان، فى الدنيا والآخرة، أما تقليد الكفار والكسالى والمنافقين، فهو يقود إلى الفوضى

---

١) ص ٨٠ : ٩٦ من اللمعات (اللمعة الحادية عشرة).

والإرهاب، وجحيم الدنيا والآخرة.. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير﴾ (البقرة: ١٢٠).

وهكذا بعد أن كملت قواعد الشريعة الغراء ودساتير السنة المطهرة، وأخذت تمام كمالها بدلالة الآية الكريمة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم..﴾ (المائدة: ٣).

فإن الإسلام لا يسمح بالتقليد الخارج عن إطار الشريعة، التقليد الذى يضعف الهمة، ويبعد عن معالى الأمور، ويؤدى بالأمة إلى التفكك والانهيار، لأنها فرطت فى العروة الوثقى، التى تحفظ لها تماسكها، وثبات بنيانها فى جميع الميادين.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار» (رواه النسائى عن جابر ﷺ (١٨٨/٣)).

المشكلة النفسية الثالثة عشر

موت الصدق والإخلاص

إن المدنية الفاسقة أبرزت رياء مدهشا، يتعذر الخلاص منه على أصحاب المدنية، إذ سمت الرياء بالشهرة، وصيرت المرء يرائى للملل، ويتصنع العناصر، كما يرائى للأشخاص، وصيرت الجرائد دلالين له، وجعلت التاريخ يصفق ويشوق بالتصفيق، وأنست الموت الشخصى، بحياة العنصرية المتمردة، فأصبحت حياة الشخص تفدى لحياة العنصرية، تحت ستار الحمية الجاهلية [1].

(١) ص ٣٠٩ من المثنوى العربى النورى (ذرة-٢).

ويعترض الإمام النورسي على ذلك فيقول[١]:

لقد علمتنى زبدة تتبعاتى وتحقيقاتى فى الحياة، بتمخض الحياة الاجتماعية أن: "الصدق" هو أس أساس الإسلام، وواسطة العقد فى سجاياه الرفيعة، ومزاج مشاعره العلوية.. فعلينا إذن أن نحيى الصدق الذى هو حجر الزاوية، فى حياتنا الاجتماعية فى نفوسنا، ونداوى به أمراضنا المعنوية.. أما الرياء فهو نوع من الكذب الفعلى، وأما المداهنة والتصنع فهو كذب دنىء مرذول. أما النفاق فهو كذب ضار جداً. والكذب نفسه إنما هو افتراء على قدرة الصانع الجليل.

إن الكفر بجميع أنواعه كذب. والإيمان إنما هو صدق وحقيقة. وعلى هذا فالبون شاسع بين الصدق والكذب، بعد ما بين المشرق والمغرب. وينبغى أن لا يختلط الصدق والكذب، اختلاط النور والنار، ولكن السياسة الغادرة، والدعاية الظالمة، قد خلطتا أحدهما بالآخر، فاختلطت كمالات البشرية ومثلها، بسفسافها ونقائصها.

أضرار موت الصدق على الإنسانية[٢]:

لما كان الصدق والكذب بعيدان أحدهما عن الآخر، بعد الكفر عن الإيمان. لذا فإن عروج محمد فى خير القرون إلى أعلى عليين بوساطة الصدق، وما فتحه من كنوز حقائق الإيمان وأسرار الكون.. جعل الصدق أروج بضاعة، وأثمن متاع، في سوق الحياة الاجتماعية.. بينما تردى مسيلمة الكذاب وأمثاله إلى أسفل سافلين بالكذب.

إذ لما حدث ذلك الانقلاب العظيم فى مكة، تبين أن الكذب هو مفتاح الكفر والخرافات، وأفسد بضاعة وأقذرها.. ولذا فالبضاعة التى تثير التقزز والاشمئزاز، لدى جميع الناس إلى هذا الحد، لا يمكن أن تمتد إليها يد أولئك

(١) ص ٥٠٦ من صيقل الإسلام (الخطبة الشامية).

(٢) ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ من صيقل الإسلام.

الذين كانوا فى الصف الأول، وهم الصحابة الكرام، الذين فطروا على تناول أجود المتاع وأثمنه وأفخره، وحاشاهم أن يلوثوا نفوسهم المباركة بالكذب، ويتشبهوا بمسيلمة الكذاب.. بل كانوا بميولهم الفطرية السليمة، وبكل ما أوتوا من قوة، فى طليعة المبتاعين للصدق، الذى هو أروج مال وأقوم متاع، بل هو مفتاح جميع الحقائق، ومرقاة عروج محمد ﷺ إلى أعلى عليين. ولأن الصحابة الكرام قد لازموا الصدق، ولم يحيدوا عنه، ما أمكنهم ذلك، فقد تقرر لدى علماء الحديث والفقه: "أن الصحابة عدول، رواياتهم لا تحتاج إلى تزكية، وكل ما رووه من الأحاديث عن النبى ﷺ صحيح".

فهذه الحقيقة المذكورة حجة قاطعة على اتفاق هؤلاء العلماء.. وهكذا فإن الانقلاب العظيم الذى حدث فى خير القرون، أدى إلى أن يكون البون شاسعاً بين الصدق والكذب، كما هو بين الكفر والإيمان.

إلا أنه بمرور الزمن، تقاربت المسافة بين الصدق والكذب، بل أعطت الدعايات السياسية أحياناً رواجاً أكثر للكذب.. فبرز الكذب والفساد فى الميدان، وأصبح لهما المجال إلى حد ما.

ولا نجاة لنفوسنا إلا بالصدق، فالصدق هو العروة الوثقى. أما الكذب للمصلحة فقد نسخه الزمان، ولقد أفتى به بعض العلماء "مؤقتا للضرورة والمصلحة، إلا أنه فى هذا الزمان، يجب ألا يعمل بتلك الفتوى، إذ أسيء استعمالها إلى حد لم يعد فيها نفع واحد، إلا بين مائة من المفاسد.. ولهذا لا تبنى الأحكام على المصلحة.

مثال ذلك: أن سبب قصر الصلاة فى السفر هو المشقة، ولكن لا تكون المشقة علة القصر. إذ ليس لها حد معين، فقد يساء استعمالها، لذا لا تكون العلة إلا السفر.. فكذلك المصلحة لا يمكن أن تكون علة للكذب، لأنه ليس للكذب حد معين، وهو مستنقع ملائم لسوء الاستعمال، فلا يناط به الحكم. وعلى هذا فالطريق اثنان لا ثالث له: "إما الصدق وإما السكوت" وليس الصدق أو الكذب أو السكوت قطعاً.

ثم إن انعدام الأمن والاستقرار في الوقت الحاضر، بالكذب الرهيب الذي تقترفه البشرية، بتزييفها وافتراءاتها، ما هو إلا نتيجة كذبها وسوء استعمالها للمصلحة، فلا مناص للبشرية إلا سد ذلك الطريق الثالث، وإلا فإن ما حدث خلال نصف هذا القرن من حروب عالمية وانقلابات رهيبة ودمار فظيع، قد يؤدي إلى أن تقوم قيامة على البشرية.

أجل! عليك أن تصدق في كل ما تتكلمه، ولكن ليس صواباً أن تقول كل صدق، فإذا ما أدى الصدق أحياناً إلى ضرر، فينبغي السكوت. أما الكذب فلا يسمح به قطعاً.

عليك أن تقول الحق في كل ما تقول، ولكن لا يحق لك أن تقول كل حق، لأنه إن لم يكن الحق خالصاً، فقد يؤثر تأثيراً سيئاً، فتضع الحق في غير محله.

أضرار موت الإخلاص في النفوس البشرية:

إن موت الإخلاص يؤدي إلى الحرص والطمع في النفوس البشرية، مما يؤدي إلى التنازع والتنافس على الشهرة وحب الجاه، وطلب نيل المقامات، والتفوق على الأقران، وأمثالها من الأحاسيس والمشاعر، وكذا التظاهر بمظهر حسن رفيع، وتقمص طور أشخاص عظام، وجلب أنظار الناس وإعجابهم، بما هو فوق الحد والطاقة، وما شابه ذلك من أنواع التصنع والتكلف، في الأعمال التي تؤدي إلى ضعف الإيمان والبعد عن الله، الذي يلقي في هاوية المهالك، والكثير من الأخلاق الرذيلة، التي يشجع عليها شياطين الإنس والجن. لأجل مطامع دنيوية دنيئة، مقيتة مضرة مكدرة، لا طائل من ورائها ولا فائدة، غير الإعجاب بالنفس والرياء، تؤدي في النهاية إلى الشرك الخفي[1].

ص ١٩٤ من من الملاحق، ٥٣٢ من المكتوبات.

إن موت الإخلاص يحرم المجتمعات من أسرار الفوز بالإخلاص، الذى يهيئ قوة معنوية كبيرة نتيجة الاتحاد والتساند[١]:

- فإن أربع "أربعات" عندما تكتب كل "٤" منفردة عن البقية، فإن مجموعها يكون "١٦".. أما إذا اتحدت هذه الأرقام، واتفقت بسر الأخوة ووحدة الهدف، والمهمة الواحدة على سطر واحد، فعندها تكسب قيمة أربعة آلاف وأربعمائة وأربع وأربعين "٤٤٤٤" وقوتها.

- والإخلاص يساعد على الإنتاج الوفير والثروات الهائلة، نتيجة الاشتراك فى الأموال والصنعة والمهارة، والإخلاص فى بذل الجهد وصدق النية.

- والإخلاص واسطة الخلاص، ووسيلة النجاة من العذاب، وتحقيق المنافع الأخروية والدنيوية.. حسب الدستور النبوى العظيم ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»** (أخرجه البخارى ومسلم والترمذى).

- إن الإخلاص فى الأعمال - ولا سيما الأخروية منها - هو أهم أساس، وأعظم قوة، وأرجى شفيع، وأثبت مرتكز، وأقصر طريق للحقيقة، وأبر دعاء معنوى، وأكرم وسيلة للمقاصد، وأسمى خصلة، وأصفى عبودية.

وهكذا فإن موت الإخلاص فى النفوس البشرية، يسبب الشقاء للإنسان، والفوضى والنفاق فى المجتمعات، مما يجعلها على شفا حفرة من النار، لا ينقذها منها إلا الالتجاء إلى الرحمن.

كيف عالج القرآن موت الصدق والإخلاص؟

يقول الإمام النورسى[٢]: إن تدوير أفكار العموم وإرشادها، بحيل الترهيب والترغيب والخوف والتكليف، إنما يكون تأثيرها جزئياً سطحيا مؤقتا، يسد طريق المحكمة العقلية فى زمان.. أما القرآن فقد نفذ فى أعماق

(١) ص ٢٤١ : ٢٥١ من اللمعات (اللمعة الحادية والعشرون).

(٢) ص ١٦٩ من إشارات الاعجاز فى مظان الإيجاز.

القلوب بإرشاده، وهيج دقائق الحسيات، وكشف أكمام الاستعدادات، وأيقظ الأخلاق، وأظهر الخصائل المستورة، وجعل جوهر إنسانيتهم فواراً، وأبرز قيمة ناطقيتهم.

فبينما ترى شخصا فى قساوة قلبه، يقبر بنته حية ولا يتألم ولا يتأثر، إذ تراه وقد أسلم، يترحم على نحو النمل، ويتألم بألم حيوان.

وهكذا أيقظ القرآن دواعى الصدق والإخلاص فى القلوب:

- فقد اختار الله رسولا اشتهر بالصدق بين قومه.. وكل حال من أحواله، وكل حركة من حركاته عليه السلام، يلوح بالمبدأ على صدقه وبالمنتهى على حقانيته[١].. ألا ترى عليه السلام أنه كيف كان حاله فى أمثال واقعة الغار التى انقطع - بحسب العادة - أمل الخلاص، يقول بكمال الوثوق والاطمئنان والجدية: **﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ (الأحزاب).**

وقد شهد القرآن له بالصدق وقرنه بصدق الله: **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾ (الأحزاب: ٢٢).**

وجميع الأنبياء بألسنة معجزاتهم، كأنهم شاهدون على صدق محمد ﷺ الذى هو البرهان النير، على وجود الصانع ووحدته.
﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ (يس: ٥٢). ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ (الصافات: ٣٧).

- غرس القرآن الصدق فى وجدان المؤمنين بكل معانيه: صدق العقيدة، صدق العبادات، صدق المعاملات.. وقص قصص الأولين والأنبياء، وبين أحوالهم وشرح أسرارهم على رؤوس العالم، مصدقا فيما اتفقت عليه الكتب السالفة، ومصححاً فيما اختلفت فيه[٢]. **﴿وأتيناك بالحق وإنا**

---

(١) ص ١٦٥ : ١٦٦ من من إشارات الإعجاز.

(٢) ص ١٦٨ من إشارات الإعجاز.

لصادقون﴾ (الحجر: ٦٤).

* رفع الله الصادقين منزلة عالية تشرئب إليها الأرواح، ليحبب الناس فى الصدق، ويدفعهم إليه دفعا: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾ (النساء: ٦٩). ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ (المائدة: ١١٩).

* وحذر الله من الكذب، وبين عاقبته الوخيمة، حتى يكون نذيراً ورادعاً، لكل من تسول لـه نفسه الكذب: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ (الزمر: ٦٠). ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ (يونس: ٧٣). ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ (المرسلات: ٢٩).

* جعل الله الإخلاص هو المحك الفاصل لقبول العبادة، لأنه دليل النضج الروحى والصفاء القلبى، ومجاهدة النفس الأمارة.. فقال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ (البينة: ٥). ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾ (الأعراف: ٢٩). فعبادة بدون إخلاص، هى جسد بدون روح، لا تثمر فعاليتها، ولا تحقق إشراقياتها للإنسان، كى يحلق فى ملكوت الله.

* جعل الله الإخلاص ينجى من كل كرب، وتنجلى به كل فتنة ظلماء: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ (لقمان: ٣٢). ﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ (يونس: ٢٢).

وهكذا فإن الآيات التى تمتدح الصدق والإخلاص، وتبين مكانة الصادقين والمخلصين، لمن الكثرة والعمق والاتساع، بحيث تستطيع أن تنفذ فى أعماق المسلمين، وتقتلع الكذب والرياء من نفوس المؤمنين، ليتذوقوا أنبل المشاعر

الإنسانية، وأسمى المعانى الإيمانية، التى تحقق لهم السكينة النفسية، وتنقذهم من براثن الضياع والأمراض النفسية.

وتلك الآيات ليست للتلاوة فقط، بل هى دستور للمسلمين، يلزمهم فى القضاء والمعاملات، والعقود والبيع والشراء، وكل أمور حياتهم.. فالكذب معناه ضياع الحقوق بين العباد، وهذا مما تأباه وترفضه شريعة الإسلام، التى تقوم على العدل والحرية والمساواة.

المشكلة النفسية الرابعة عشر

العجلة وعدم الصبر

يكاد يمكننا القول إن العجلة وعدم الصبر، هى من الخصائص الفطرية للنفس البشرية، وهى السبب فى كل ما سبق من أمراض نفسية، لأن تعجل الإنسان على ناتج عمله، وعدم تحمله ابتلاءات الحياة، تسبب له كثيراً من المشاكل النفسية، التى سبق التعرض لها.

والدليل على أن العجلة وعدم الصبر، هى من الداءات المركوزة فى نفس الإنسان هو قول الحق جل وعلا: **﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا﴾ (الإسراء: ١١)**. **﴿خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون﴾ (الأنبياء: ٣٧)**. **﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوطا﴾ (فصلت: ٤٩)**. **﴿وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ (الروم: ٣٦)**.

ونظراً لأن الله عليم بنفوس البشر، خبير بما يصلحهم، حكيم فى تشخيص الداء، ووصف الدواء، فقد أرسل رسوله الحبيب، رحمة للعالمين، من شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، وأنزل عليه القرآن الكريم، فيه شفاء لما فى الصدور، حتى يتخلصوا من كل داء دفين، يقلق كيانهم، ويحرمهم من الطمأنينة والسكينة، التى تحلق بهم فى مدارج العلا، وتسدد خطاهم إلى ما

فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة.

وإذا كان الناس فى كل عصر، محتاجين إلى القرآن الكريم، ليشفى عللهم، وينقذهم من أمراضهم.. فإنهم فى هذا العصر، أشد احتياجا لهدى القرآن وتعاليم الإسلام، وهدى النبوة، ليقتبسوا بعض الأنوار التى تبدد ظلمات المدنية الحديثة، وتراكمات المادية التى تسبب الشقاء والضياع للنفوس البشرية.. وهذا ما سنحاول التعرف على أبعاده، من كلمات الإمام النورسى، التى تنبع من القرآن العظيم.

لماذا اتسم هذا العصر بالعجلة وعدم الصبر عن العصور السابقة؟

يجيب على ذلك الإمام النورسى بقوله[1]:

إن خاصية هذا العصر أنها تجعل المرء يفضل الحياة الدنيا على الآخرة، أى يفضل الحياة العاجلة على الباقية، كما قال المولى ﷻ: ﴿كلا بل تحبون العاجلة ۝ وتذرون الآخرة﴾ (القيامة: ٣٠، ٣١). وكما أنه إذا اشتكى عضو من الجسد، تداعى له سائر الجسد، تاركاً قسماً من وظائفه.. كذلك جهاز الحرص على الحياة والحفاظ عليها، والتلذذ بها وعشقها، المندرج فى فطرة الإنسان، قد جرح فى هذا العصر، فبدأ يشغل سائر اللطائف به، لأسباب عديدة، محاولاً دفعها إلى نسيان وظائفها الحقيقية.. ونظراً لأن الحياة الإنسانية فى هذا العصر - ولاسيما الحياة الاجتماعية - قد اتخذت وضعاً مخيفاً، ولكنه ذات جاذبية شديدة، فإنها تثير اللهفة والفضول، بحيث تجعل عقل الإنسان وقلبه ولطائفه الرفيعة، تابعة لنفسه الأمارة بالسوء، حتى تحوم حول نار تلك الفتنة وترديها فيها.

نعم، إن هذا العصر قد غرز حب الحياة الدنيوية فى عروق الإنسان، حتى أنه يترك أموراً دينية ثمينة كالألماس، لحاجة صغيرة تافهة، أو لئلا

---

(١) ص ١٤٢ : ١٤٦ من الملاحق (ملحق قسطمونى).

يصيبه ضرر دنيوى اعتيادى.. فهذا العصر الذى رفعت منه البركة، من جراء الإسراف المتزايد وعدم مراعاة الاقتصاد، ومن عدم القناعة مع الحرص الشديد، فضلا عن تزايد الفقر والحاجة والفاقة وهموم العيش.. قد سبب جروحا بليغة فى تطلع الإنسان للعيش، وفى نزوعه لحفظ الحياة، علاوة على تشعب متطلبات الحياة المرهقة، زد على ذلك استمرار أهل الضلالة بتوجيه كل الأنظار إلى الحياة.. كل ذلك عمق تلك الجروح، حتى دفع بالإنسان إلى أن يفضل أدنى حاجة من حاجات الحياة، على مسألة إيمانية عظيمة، واستحباب الدنيا على الآخرة، وتفضيلها عليها فى كل شىء. وهكذا أسدل هذا العصر العجيب بهذه الأمور، حجابا دون الحياة الدينية والأخروية والأبدية، أو على الأقل جعلها أمرا ثانويا أو ثالثيا بالنسبة للإنسان.. لذا جوزى هذا الإنسان على خطئه ذلك، بلطمة قوية شديدة، حولت دنياه إلى جحيم لا يطاق، بحيث لا يجدى معه أى صبر.

وقد يتورط المتدينون أيضا فى هذه المصيبة الرهيبة، ولا يشعر قسم منهم أنهم قد وقعوا فى هذه الورطة وأذكر مثالا على ذلك: أننى رأيت عددا من الأشخاص -من أهل التقوى- يرغبون فى الدين، ويحبون إقامة أوامره، كى يوفقوا فى حياتهم الدنيوية، ويفلحوا فى أعمالهم. حتى أن منهم من يطلب الطريقة الصوفية، لأجل ما فيها من كرامات وكشفيات. بمعنى أنه يجعل رغبته فى الآخرة وثمارها، سلما للوصول إلى أمور دنيوية، ولا يعلم هذا أن الحقائق الدينية، التى هى أساس السعادة الدنيوية، كما هى أساس السعادة الأخروية، لا تكون فوائدها الدنيوية إلا مرجحة ومشوقة، فلو ارتقت تلك الفائدة إلى مرتبة لعمل البر، فإنها تبطله، وفى الأقل يفسد إخلاصه، ويذهب ثوابه. وبذلك فإن هذا العصر قد جعل حتى المسلمين، يستحبون الحياة الدنيا، ويرجحونها على الآخرة، على علم منهم، ورغبة فيهم، كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا﴾ (الإنسان: ٢٧).

وهكذا فإن جميع المسائل العظمى التى ينهمك بها أهل الدنيا، إنما تدور

ضمن الدستور الظالم، دستور الجدال والصراع، وفى نطاق الحياة الفانية، بأبشع صورها وأظلمها، حتى يضحى فى سبيلها بالمقدسات الدينية، حصولاً على حطام الدنيا، لذا يلقيهم القدر الإلهى فى عذاب جهنم معنوية، من خلال جرائمهم التى يرتكبونها[١].

كيف يمكن علاج النفس من العجلة وعدم الصبر؟

يشرح لنا الإمام النورسى هذا السبيل شرحاً وافياً، يبدد ظلمات النفس العمياء، مستمداً منهجه هذا من أنوار القرآن الكريم، ووحى الشريعة الغراء، التى تركها لنا الرسول ﷺ على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ونختصر منهاج الإمام النورسى فى تلك النقاط:

- اعلم يقينا أيها الإنسان: أن بدنك وأعضاءك ووجودك ومالك وحيواناتك، التى أنعمها الله سبحانه عليك، ليس للتمليك بل للإباحة.. أى أنه ملكك ملكه لتستفيد، وأباحه لك للانتفاع، ولم يملكه لك ملكا.. وما عليك إلا العمل وفق دستور الإباحة، وليس وفق رغباتك وأهوائك[٢].

ومن هذا المنطلق، لا يحق لك العجلة وعدم الصبر: فلا يجوز الانتحار وإنهاء الحياة، التى وهبها لك الله سبحانه إباحة.. ولا يمكنك أن تفقأ عينك، سواء حقيقة أو معنى (بالنظر إلى الحرام مما لا يرضى به صاحبها) وكذا الأذن واللسان والأنف، وما شابهها من الجوارح والحواس والأجهزة.. فينبغى التصرف فى جميع النعم فى الدنيا، وفق شريعة المضيف الكريم.

- فى هذا العصر تيارات قوية ومسيطرة، إلى درجة تستحوذ على كل شىء، وتستولى عليه، وتمتلكه لنفسها، وتسخره لأجلها.. ومن يريد

(١) ص ٢٤٧ من الملاحق (ملحق أمر داغ-١).

(٢) ص ٩٣ من الملاحق (ملحق بارلا).

الإصلاح (سواء كان المهدى المنتظر أو غيره) فعليه أن يجرد نفسه من الأجواء والأحوال الدائرة فى عالم السياسة، حفاظا على أعماله من أن تغتصبها تلك التيارات[١]..

ولما كانت هناك ثلاث مسائل هامة تحتاج إلى التغيير وهى: الحياة – الشريعة – الإيمان.. فإن تغيير أوضاع المسائل الثلاث كلها، دفعة واحدة فى الأرض كافة، لا يوافق سنة الله الجارية فى البشرية.. لذلك فعليه أن يتذرع بالتأنى والصبر، والثبات العظيم، والوفاء الخالص، والغيرة الشديدة على الإسلام، حتى يتحقق لدى عقول عوام الناس – الذين يمكن أن يستغفلوا ببساطة – أن تلك الخدمة ليست أداة لأى مقصد آخر.. وبذلك تتحقق الثمرة المرجوة من الإصلاح.

- على المؤمنين الحقيقيين الصادقين: أن يتذرعوا بالتساند والترابط الخالص، حتى لا يكونوا عاجزين ضعفاء أمام الفرق الضالة المتحدة.

ففى خضم هذه الأهوال والمصائب، التى نشبت فى الكرة الأرضية، فإن كل إنسان له نصيبه من المعاناة: إما قلباً أو روحاً أو عقلاً أو بدنا. ولاسيما أهل الضلالة والغافلين.. ولن يقدر على الحفاظ على سلامة القلب وراحة الروح، إلا أهل الإيمان وأهل التوكل والرضا. لأنهم يرون أثر الرحمة الإلهية فى كل حادثة.. لذا يجابهون المصائب بالتسليم التام لأمر الله. ويساعدهم على تخفيف أثرها الترابط مع إخوانه المؤمنين، إذ يشترك معهم بسر الإخلاص فى الأعمال الأخروية، فلا يتعبد بلسان واحد، بل بعدد ألسنة إخوانه جميعاً. ويستغفر ربه بعدد تلك الألسنة، ويقابل كذلك الذنوب المهاجمة من ألف جهة، بألوف ألوف من الألسنة المستغفرة العابدة[٢].

---

(١) ص ١٣٦ من الملاحق (ملحق قسطمونى).

(٢) ص ١٤٠ ، ١٥٢ من الملاحق.

- إن الشباب الذى يتسم بالعجلة وعدم الصبر أكثر من غيره: يجب أن يعلم علماً يقينياً، أن الشباب سيزول حتماً وسيزول لا محالة.. فإن كان قد انقضى فى سبيل الملذات، ونشوة الطيش والغرور، فسيورث آلاف البلايا والآلام والمصائب الموجعة، سواء فى الدنيا أو الآخرة.. وعليه أن يعلم أن تصرفات الشباب الطائشة وإسرافاتهم، تؤدى بهم فى غالب الأمر إلى المستشفيات، بسبب نزواتهم وغرورهم.. أو إلى الملاهى والخمارات، بسبب ضيق صدورهم بالآلام والاضطرابات المعنوية والنفسية التى تنتابهم.

- وينصح الإمام النورسى شباب رسائل النور قائلاً: إن أهل الضلالة يريدون زعزعة الرابطة التى بينكم، مستفيدين من عروق واهية، نابعة من اختلاف المشارب أو المشاعر، مستغلين متطلبات العيش ولوازمه، والغفلة التى تخيم نتيجة النفس الأمارة والشيطان.. فعليكم بالتساند والإخلاص والشورى. ولا تتشددوا وأوغلوا برفق، فالناس ليسوا سواسية فى المشارب. وعليكم التسامح مع بعضكم البعض، حتى لا تنشغلوا بلسع البعوض، وتتركون هجوم الثعابين المرعبة عليكم، من المنافقين الذين يهدفون إلى تدميركم وتحطيمكم. فبالإيمان والإخلاص مع الإخوان، يكون للمؤمنين نقطة استناد عظيمة، وركيزة لا تتزعزع، تحميهم من نتائج العجلة واليأس، الناتج عن عدم الصبر(١).

- وأخيرا يرى الإمام النورسى، أن أهم علاج فى هذا السبيل هو:

أن يعلم المؤمن يقينا: أن هذه الدنيا دار عمل، وليس موضع أخذ الأجرة، فثواب الأعمال الصالحة وثمراتها وأنوارها، تمنح فى البرزخ والآخرة. وأن جلب تلك الثمرات الباقية إلى هذه الدنيا، وطلبها فى هذه الدنيا، يعنى جعل الآخرة تابعة لهذه الدنيا. وعندها ينثلم إخلاص تلك الأعمال الصالحة ويذهب نورها.. نعم إن الثمرات لا تطلب ولا تنوى قلباً، بل

---

(١) ص ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢٢٢ من الملاحق.

يشكر عليها إذا ما منحت للحث.. ولكن إنسان هذا العصر، قد غرز حب الحياة الدنيوية فيه، وجرى فى عروقه، فجرحه جروحا بالغة، حتى أن شيخا هرما، وعالما تقيا صالحا، يطلب أذواق الحياة الأخروية فى الدنيا، لجريان حكم أذواق الحياة الدنيوية فيه أولا(١)..

إن أهل الضلالة يكافحون فى سبيل حياة دنيوية مؤقتة، أما أهل الإيمان فيجاهدون الموت بنور القرآن.. وهكذا تصبح أعظم مسألة فى نضال أهل الضلالة - لأنها مؤقتة، لا تعادل أصغر مسألة من مسائل أهل الإيمان، الذين لا يتعجلون النتائج، ويتذرعون بالصبر، لأن توجههم فى المقام الأول يكون إلى دار البقاء والخلود(٢).

وحيث أن الحرص فى الأمور الأخروية والاستزادة منها، مقبول من جهة، إلا أنه فى مسلك الإمام النورسى - قد يكون لبعض العوارض - سببا للشكوى واليأس بدل الشكر، إذ قد يقع الحريص فى خيبة الظن من عمله - لعدم رؤيته نتائجه، بل ربما يدع خدمة الإيمان.. لذا فالإمام النورسى يرى أنه مكلف فى مسلكه بالقناعة، وعدم الحرص على نتائج الخدمة وثمراتها، وذلك لأن القناعة فى النتائج، تورث دائما الشكر والثبات والصلابة(٣).

علاج العجلة وعدم الصبر فى القرآن الكريم:

لما كانت العجلة وعدم الصبر، من الخصائص الأساسية للنفس البشرية، فقد اهتم القرآن اهتماماً بالغاً بعلاج ذلك الداء الدفين. وقد شمل العلاج محورين أساسيين:

المحور الأول: هو الترغيب والترهيب بآيات القرآن، التى تجل عن

(١) ص ١٥٦ من الملاحق.

(٢) ص ٢٤٧ من الملاحق.

(٣) ص ٢٧٥ من الملاحق.

الحصر، في بيان مساوئ العجلة وعدم الصبر، وبيان مكانة الصبر والصابرين عند الله. وضرب الأمثلة لصبر الأنبياء على أذى الناس في دعوتهم، أو صبرهم على الابتلاءات الإلهية.

من تلك الآيات:

مكانة الصابرين: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ (الرعد: ٢٤).

صبر الرسل: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا﴾ (الأنعام: ٣٤).

الصبر يحقق الإمامة: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ (السجدة: ٢٤).

الصبر يحقق المعية مع الله: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ (البقرة: ١٥٣).

الصبر ضروري لتمحيص المجاهدين في الله حق جهاده: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ (آل عمران: ١٤٢).

العجلة مطلوبة في الخير: ﴿قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى﴾ (طه: ٨٤).
﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ (آل عمران: ١٣٣).

أما العجلة في الشر فغير مرغوبة: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً﴾ (الإسراء: ١٨).

وتلك الآيات ما هي إلا غيض من فيض، من وحي كلمات الله، التي تهدف إلى تهذيب الوجدان، وتطهير نفس الإنسان، ليكون مؤمنا حقاً وعدلاً، يسلم وجهه لله في خشوع واطمئنان..

أما المحور الثاني فهو: فرض العلاج العملي، الذي يعلم الإنسان فعلا الهدوء والسكينة، وينزع من نفسه العجلة وعدم الصبر. ذلك العلاج يتمثل في الصلاة، التي جعلها الله عماد الدين، فمن أقامها أقام الدين. ومن شروط الصلاة التي لا تقبل إلا بها الخشوع. حيث قال الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ (المؤمنون: ٢).

ويبين الإمام النورسي أهمية الصلاة في صقل القلب والوجدان، وتعويد

النفس الصبر والسلوان. فيقول مخاطبا نفسه[١]:

- إن الصلاة التى تجلب الغذاء لقلبى، وماء الحياة لروحى، ونسيم الهواء للطيفة الربانية الكامنة فى جسمى، لابد أنها تجعلك لا تملين ولا تسأمين أبدا.

نعم! إن القلب المتعرض لأحزان وآلام لا حد لها، المفتون بآمال ولذائذ لا نهاية لها، لا يمكنه أن يكسب قوة ولا غذاء، إلا بطرق باب الرحيم الكريم، القادر على كل شىء بكل تضرع وتوسل.. وأن الروح المتعلقة بأغلب الموجودات الآتية، والراحلة سريعاً فى هذه الدنيا الفانية، لا تشرب ماء الحياة، إلا بالتوجه بالصلاة إلى ينبوع رحمة المعبود الباقى، والمحبوب السرمدى. وأن السر الإنسانى الشاعر الرقيق اللطيف، وهو اللطيفة الربانية النورانية، والمخلوق للخلود، والمشتاق له فطرة، والمرآة العاكسة لتجليات الذات الجليلة.. لابد أنه محتاج أشد الحاجة إلى التنفس، فى زحمة وقساوة وضغوط هذه الأحوال الدنيوية الساحقة، الخانقة العابرة المظلمة، وليس له ذلك الا بالاستنشاق من نافذة الصلاة.

- فيا نفسى الفارغة من الصبر.. إنك مكلفة بثلاثة أنواع من الصبر:
  الأول: الصبر على الطاعة.
  الثانى: الصبر عن المعصية.
  الثالث: الصبر عند البلاء.

فان كنت فطنة فقولى بكل همة ورجولة: يا صبور. ثم خذى على عاتقك الأنواع الثلاثة من الصبر. واستندى إلى قوة الصبر المودعة فيك، وتجملى بها، فإنها تكفى للمشقات كلها، وللمصائب جميعها ما لم تبعثريها خطأ فى أمور جانبية..

إن الصلاة هى قوت لقلبك العاجز الفقير وسكينة له، فى هذا المضيف

(١) ص ٢٩٧ : ٣٠٢ من الكلمات (الكلمة الحادية والعشرون).

المؤقت وهو الدنيا. وهى غذاء وضياء لمنزلك، الذى لابد أنك صائرة إليه، وهو القبر. وهى عهد وبراءة فى محكمتك، التى لاشك أنك تحشرين إليها. وهى التى ستكون نورا وبراقا على الصراط المستقيم، الذى لابد أنك سائرة عليه..

- يا نفسى المغرمة بالدنيا!.. هل أن فتورك فى العبادة، وتقصيرك فى الصلاة، ناشئان من كثرة مشاغلك الدنيوية؟ أم أنك لا تجدين الفرصة لغلبة هموم العيش؟!

فيا عجباً! هل أنت مخلوقة للدنيا فحسب، حتى تبذلى كل وقتك لها؟. تأملى!! أنك لا تبلغين أصغر عصفور، من حيث القدرة على تدارك لوازم الحياة الدنيا، رغم أنك أرقى من جميع الحيوانات فطرة. لم لا تفهمين من هذا أن وظيفتك الأصلية، ليس الانهماك بالحياة الدنيا، والاهتمام بها كالحيوانات، وإنما السعى والدأب لحياة خالدة، كالإنسان الحقيقى. مع هذا فإن أغلب ما تذكرينه من المشاغل الدنيوية، هى مشاغل ما لا يعنيك من الأمور، وهى التى تتدخلين فيها بفضول، فتهدرين وقتك الثمين جداً فيما لا قيمة له، ولا ضرورة ولا فائدة منه.. كتعلم عدد الدجاج فى أمريكا!! أو نوع الحلقات حول زحل. وكأنك تكسبين بهذا شيئاً من الفلك والإحصاء!! فتدعين الضرورى والأهم والألزم من الأمور، كأنك ستعمرين آلاف السنين؟

- واعلمى يا نفسى.. أن لكل منا عالمه الخاص من ذلك العالم، وأن نوعيته تتبع عملنا وقلبنا، مثله فى ذلك مثل المرآة، تظهر فيها الصورة تبعا للونها ونوعيتها، فإن كانت مسودة فستظهر الصورة مسودة.. وإن كانت صقيلة فستظهر الصورة واضحة، وإلا فستظهر مشوهة، تضخم أتفه شيء وأصغره.. وكذلك أنت، فبقلبك وبعقلك وبعملك، يمكنك أن تغيرى صور عالمك، وباختيارك وطوع إرادتك، يمكنك أن تجعلى ذلك العالم يشهد لك أو عليك.

وهكذا إن أديت الصلاة وتوجهت بصلاتك إلى خالق ذلك العالم ذى الجلال، فسيتنور ذلك العالم المتوجه إليك حالاً، وكأنك قد فتحت بنية الصلاة مفتاح النور، فأضاءه مصباح صلاتك، وبدد الظلمات فيه.. وعندها تتحول وتتبدل جميع الاضطربات والأحزان، التى حولك فى الدنيا، فتراها نظاماً حكيماً، وكتابة ذات معنى بقلم القدرة الربانية، فينساب نور من أنوار "الله نور السماوات والأرض" إلى قلبك، فيتنور عالم يومك ذاك، وسيشهد بنورانيته لك عند الله..

وفى نهاية تلك المقتطفات التى نقلناها عن الإمام النورسى، وهو يخاطب نفسه مبينا أهمية الصلاة فى تعويدها الصبر وجلاء همها وحزنها، لا يسعنا إلا أن نسجد أمام عظمة الله، وعظمة قرآنه الحكيم. حيث يقول المولى جل شأنه: ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ **(العنكبوت: ٤٥).**

وهكذا نكون قد وصلنا إلى نهاية المطاف، فى عرض كيف عالج القرآن مشكلات الإنسان النفسية.. ندعو الله أن يكون القارئ المسلم – أو غير المسلم – قد استفاد من هذا العرض، وألا يكون قد ضيع وقته الثمين وجهده معنا، سدى بلا طائل يذكر.. وأشهد الله أننى اجتهدت بقدر استطاعتى، فإن كنت قد وفقت، فبفضل من الله وحمده، وبفضل رسائل النور، التى تزخر بالأنوار الساطعة، التى تبهر ذوى البصائر، ورحم الله الإمام النورسى الذى علمنا العلم النافع.

وإن لم أكن قد وفقت، فإنه من نفسى، التى لم تعرف كيف تجاهد فى الله حق جهاده، ولم تعرف كيف تغترف من كنوز الرحمة الإلهية.

ولكى يكتمل المقصود من بحثنا نردفه بخاتمة، عن كيفية تحقيق القرآن السكينة والاطمئنان للنفس البشرية.

الخاتمة

كيف يحقق القرآن السكينة للنفس والاطمئنان؟

يقول تعالى عن قرآنه الكريم: ﴿قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور﴾ **(يونس: ٥٧)**.

ويصف الإمام النورسى القرآن بأنه[1]: المربى لهذا العالم الإنسانى.. وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التى هى الإسلام.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر.. وهو المرشد المهدى إلى ما يسوق الإنسانية إلى السعادة.. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة، كذلك هو كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.. وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب، التى تحقق جميع حاجات الإنسان المعنوية، حتى أنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين، رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره.

مسلك القرآن فى تحقيق السكينة والاطمئنان:

يمكن بيان هذا المسلك موجزا، فيما كتبه الإمام النورسى، عن أسرار آية واحدة من آيات القرآن الكريم.. ونترك للقارئ مجال الاجتهاد مفتوحا، لاستخراج ما يروق له من كنوز القرآن، التى تحقق للنفس كل أمان واطمئنان.. تلك الآية هى "بسم الله الرحمن الرحيم" وذلك فى قولى تعالى:

---

(١) ص ٤٢٢ من الكلمات (رسالة المعجزات القرآنية).

﴿قالت: يا أيها الملؤا إني ألقي إلي كتاب كريم ۞ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (النمل ٢٩-٣٠).

فيقول الإمام النورسي رضي الله عنه[١]:

سنذكر في هذا المقام بضعة من الأسرار[٢]:

السر الأول:

أثناء تأملي في البسملة، رأيت نوراً من أنوار "بسم الله الرحمن الرحيم" على الصورة الآتية: أن هناك ثلاث علامات نيرة ساطعة للربوبية، على سيماء الكائنات، وعلى قسمات وجه الأرض، وعلى ملامح الإنسان. هذه العلامات الزاهرة والآيات الساطعة، متداخل بعضها في البعض الآخر، حتى أن كلاً منها يبين نموذج الآخر ومثاله.

فالعلامة الأولى: هي علامة الألوهية، تلك الآية الكبرى، الساطعة من التعاون والتساند والتعانق والتجاوب، الجاري في أجزاء الكون كله؛ بحيث يتوجه "بسم الله" إليها ويدل عليها.

العلامة الثانية: هي علامة الرحمانية، تلك الآية العظمى، الزاهرة من التشابه والتناسب والانتظام والانسجام واللطف والرحمة، الساري في تربية النباتات والحيوانات؛ بحيث يتوجه "بسم الله الرحمن" إليها ويدل عليها.

ثم العلامة الثالثة: وهي علامة الرحيمية، تلك العلامة السامية، الظاهرة من لطائف الرأفة الإلهية ودقائق شفقتها وأشعة رحمتها، المنطبعة على سيماء الماهية الجامعة للإنسان، بحيث يتوجه اسم "الرحيم" الذي في "بسم الله الرحمن الرحيم" إليها ويدل عليها.

---

(١) ص ١٤٦ : ١٥٥ من اللمعات (المقام الثاني من اللمعة الرابعة عشرة).

(٢) ونحن بدورنا اخترنا من الأسرار ما يحقق مقصودنا. ومن يريد التوسع عليه الرجوع إلى المرجع الأصلي.

أى أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ عنوان قدسى، لثلاث آيات من آيات الأحدية، حتى أنه يشكل سطراً نورانياً فى كتاب الوجود، ويخط خطاً ساطعاً فى صحيفة العالم، ويمثل حبلاً متينا بين الخالق والمخلوق. أى أن "بسم الله الرحمن الرحيم" نزولاً من العرش الأعظم، يرتبط طرفه ونهايته بالإنسان، الذى هو ثمرة الكائنات، ونسخة العالم المصغرة، فيربط الفرش بالعرش الأعظم، ويكون سبيلاً ممهداً لعروج الإنسان إلى عرش كمالاته.

فان شئت أن تعرف مدى أهمية هذا المعراج، ومدى عظمته ومكانته، فانظر إلى مستهل سور القرآن الكريم، البالغة مائة وأربع عشرة سورة، وانظر بدايات كل كتاب قيم، ولاحظ بدء كل أمر ذى بال. حتى يعد حجة قاطعة على عظمة البسملة وعلو قدرها، ما قاله الإمام الشافعى، وأمثاله من المجتهدين العظام: إن البسملة رغم أنها آية واحدة، فإنها نزلت فى القرآن مائة وأربع عشرة مرة.

السر الثانى:

إن القرآن الكريم يبين دوماً "الأحدية" ضمن تجلى "الواحدية" ليحول دون غرق العقول وتشتتها، فى تلك "الواحدية" الظاهرة فى مخلوقات كثيرة لا يحصرها العد.

إن تجلى الواحدية فى مخلوقات لا حد لها، لا يحيط به كل من يقول: ﴿إياك نعبد﴾. حيث يتشتت الفكر ويتيه فى تلك الكثرة، إذ يلزم لملاحظة ذات الله الأحد، من خلال مجموع المخلوقات، لدى خطاب ﴿إياك نعبدُ وإياك نستعين﴾ وجود قلب واسع يسع الأرض كلها.

فبناء على هذا السر الدقيق، فإن الله سبحانه يبين بجلاء طابع الأحدية فى كل جزء، مثلما يُظهره فى كل نوع، وذلك لتُشد الأنظار إلى ذات الله الأحد، وليتمكن كل شخص - مهما بلغت مرتبته - من التوجه المباشر فى خطابه ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ إلى ذات الله الأقدس سبحانه، من دون تكلف أو

صعوبة.

فتبيانا لهذا السر العظيم، فإن القرآن الكريم عندما يبحث في آيات الله، في أجواء الآفاق وفي أوسع الدوائر، إذا به يذكر أصغر دائرة من دوائر المخلوقات، وأدق جزئية من جزئياتها، إظهاراً لطابع الأحدية بوضوح في كل شيء.

مثال ذلك:

عندما يبين القرآن الكريم آيات خلق السماوات والأرض، يعقبها بآيات خلق الإنسان، وبيان دقائق النعمة في صوته، وبدائع الحكمة في ملامحه، كي لا يتشتت الفكر في آفاق شاسعة، ولا يغرق القلب في كثرة غير متناهية، ولتبلغ الروح معبودها الحق دون وساطة.

فالآية الكريمة الآتية تبين الحقيقة السابقة بياناً معجزاً: ﴿**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم**﴾ **(الروم: ٢٢)**.

السر الثالث:

إنه بديهي، بل مشاهد أن الرحمة الإلهية هي التي أبهجت الكائنات التي لا يحدها حدود.. وأن الرحمة نفسها هي التي أنارت هذه الموجودات المغشية بالظلمات.. وأن الرحمة أيضاً هي التي ربت في أحضانها هذه المخلوقات المتقلبة في حاجات لا حد لها.. وأن الرحمة أيضاً هي التي وجهت الكائنات من كل صوب وحدب، وساقتها نحو الإنسان وسخرتها له، بل جعلتها تتطلع إلى معاونته وتسعى لإمداده، كما تتوجه أجزاء الشجرة إلى ثمرتها. وأن الرحمة أيضاً هي التي عمرت هذا الفضاء الواسع، وزينت هذا العالم الخالي.. وأن الرحمة نفسها هي التي جعلت هذا الإنسان الفاني، مرشحاً للخلود والبقاء، وأهلته لتلقي خطاب رب العالمين، ومنحته فضل ولايته سبحانه.

فيا أيها الإنسان المتقلب في خضم عجز لا نهاية له، وفقر لا حد له، إذا

أردت أن تفهم كيف أن الرحمة أعظم وسيلة وأرجى شفيع، فاعلم: أن الرحمة أقوى وسيلة للوصول إلى سلطان عظيم ذى جلال، تنقاد له النجوم والذرات معاً، جنوداً مطيعين طاعة تامة فى انتظام تام.. ذلك السلطان ذو الجلال والإكرام رب العالمين، المستغنى عن الخلق أجمعين، الكبير المتعالى عن الموجودات، فلا حاجة له أصلاً إلى الموجودات، بل كل شيء قد تواضع لعظمته، واستسلم لقدرته، وذل لعزته، وخضع لهيبة جلاله.. فالرحمة أيها الإنسان ترفعك إلى ذيوان حضور ذلك الغنى المطلق، وتجعلك خليلاً لذلك السلطان السرمدى الأعظم، بل تعرج بك إلى مقام خطابه الجليل، وتجعلك عبداً مكرماً محبوباً عنده.

ولكن، كما أنك لا تصل إلى الشمس لبُعدك عنها، بل لا يمكنك التقرب إليها بحال، فإن ضوءها يسلم إليك تجليها وصورتها بواسطة مرآة.. ﴿ولله المثل الأعلى﴾، فنحن على الرغم من بُعدنا المطلق عن الله ﷻ، فإن نور رحمته يقربه إلينا.

فيا أيها الإنسان! إن من يظفر بهذه الرحمة، فقد ظفر بكنز عظيم لا يفنى، كنز ملؤه النور..

أما طريق الوصول إلى ذلك الكنز العظيم فاعلم: أن أسطع مثال للرحمة، وأفضل من يمثلها، وأبلغ لسان ناطق بها، وأكرم داع إليها، هو الذى سمى فى القرآن الكريم ﴿رحمة للعالمين﴾ وهو رسولنا الحبيب ﷺ. فالطريق الأمثل لبلوغ تلك الخزينة الأبدية، هو اتباع سنته المطهرة.

ولكن كيف الوصول إلى الرسول الحبيب ﷺ، وما الوسيلة إليه؟

فاعلم ان الوسيلة هى الصلاة عليه.

نعم! الصلاة عليه تعنى الرحمة، فالصلاة عليه دعاء بالرحمة، لتلك الرحمة المجسمة الحية، وهى وسيلة الوصول إلى من هو رحمة للعالمين.

فيا أيها الإنسان! اجعل الصلاة عليه وسيلة الوصول إليه، ثم استمسك به،

ليبلغك رحمة الرحمن الرحيم. فإن الأمة جميعها بدعائها وصلواتها على الرسول الكريم، إنما تثبت بوضوح مدى قيمة هذه الرحمة، ومدى أهمية هذه الهدية الإلهية، ومدى سعتها وعظمتها.

وفى نهاية تلك الخاتمة نقول: اللهم يا رحمن يا رحيم، وفق المسلمين إلى فهم أسرار القرآن الكريم، حتى يحققوا السيادة على العالمين، بتحررهم من الآفات النفسية، وتحقيق الأمن والسكينة للنفوس البشرية، بتعاليم الإسلام السماوية، حتى يرجعوا إلى ربهم بنفوس مطمئنة راضية مرضية..

كما قلت وقولك الحق فى قرآنك الكريم:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية﴾ (الفجر: ٢٧).

وندعوك يارب بدعاء رسولك الحبيب ﷺ:

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء حزننا وذهاب غمنا

وصل اللهم على سيدنا محمد صلاة تصفى بها نفوسنا من كل الأمراض حتى نلقاك

بالقوالب المسلمة والقلوب السليمة .. إنك بالإجابة جدير وعلى كل شئ قدير

المراجع

يعتبر هذا البحث خاص بفكر العالم الإمام التقى الورع:

"بديع الزمان سعيد النورسي" .. وتسمى مؤلفاته **"كليات رسائل النور"**

ترجمة وتحقيق: إحسان قاسم الصالحى.

نشر وتوزيع: "دار سوزلر" للنشر - فرع القاهرة (١٠ شارع يوسف عباس - مدينة التوفيق - مدينة نصر - هاتف: ٢٦٣٦٦٨٤).

وتشمل "كليات رسائل النور" الكتب التالية:

١- **الكلمات**.. ترجمة كتاب سوزلر SÖZLER عن التركية

الترقيم الدولى: I.S.B.N: 957-432-021-7

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٢/٤٧٤١.

الطبعة الثانية **(بمصر)** ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٢- **المكتوبات**.. ترجمة كتاب المكتوبات MEKTUBAT عن التركية

الترقيم الدولى: I.S.B.N: 975-402-022-5

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٢/٨٤١٤.

الطبعة الثانية **(بمصر)** ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

٣- **اللمعات**.. ترجمة كتاب اللمعات LEM' ALLAR عن التركية

الترقيم الدولى: I.S.B.N: 977-5323-05-3

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/١٧٨٦.

الطبعة الثانية **(بمصر)** ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٤- **الشعاعات**.. ترجمة كتاب شعاعلر SUÂLAR عن التركية

الترقيم الدولى: I.S.B.N: 977-00-5680-4

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/٨٣٢٣.

الطبعة الثانية **(بمصر)** ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٥- **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز:**

ترجمة كتاب ISÂRÂTÜL - ICAZ عن التركية

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 977-00-6366-5
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/١١٤٤٠.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

٦- **المثنوي العربي النوري:**

ترجمة كتاب Meshevi i Nuriye عن التركية

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 977-00-7972-3
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٤/١٠٥٢٢.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٧- **الملاحق في فقه دعوة النور:**

ترجمة كتاب LAHIKALAR عن التركية

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 977-00-5323-09-6
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٥/٥٨٧٠.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٨- **صيقل الإسلام في فقه دعوة النور:**

ترجمة وتحقيق:

1- Muhakemat
2- قزل إيجاز
3- تعليقات على برهان الكلنبوى
4- Sunuhat
5- Munazarât
6- Divan-i Harbiörfi
7- Hutbe-i Samiye
8- Hutuvat-l Sitte

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 5332-11-X
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٥/١١٣٥٤.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل